رشيد بوجدرة

حرمان

'قامة أدبية بارزة'

Le Monde

رواية

دار الساقي

حرمان

رشيد بوجدرة

حرمان

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

Rachid Boudjedra, *La dépossession*, Editions Grasset & Fasquelle, 2017

© Éditions Grasset & Fasquelle, 2017.

الطبعة العربية

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠٢٠

الطبعة الإلكترونية، ٢٠٢٠

ISBN-978-614-03-2090-1

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

1

لا أثر أو دليل على أيّ رائحة أو خصوصيّة ما. لا شيء سوى مزيجُ رَوائحَ مختلفة تبعث على الغثيان تتخلله كذلك رائحة الفطور المتعفنة. نوع من البخار يتصاعد من أجسام قُراء **القرآن** الهرمة ومن ثيابهم الوسخة المهترئة، وحتى من أصواتهم الغليظة المترنحة وهي تصبّ الآيات القرآنية الرائعة صّباً. إذن، خليط روائح تتسيّدها رائحة الكافور المتدفقة من جثمان أمي الملقى مباشرة على أرضية الغرفة المفروشة بزربية[1] قديمة النسيج، بربرية الطراز العتيق الأصل والرهيف الحافات. جثمان أمي المكفّن بكفنٍ ساطع الاصفرار. هو الأصفر نفسه المطليّة به جلود الخيل المصطفّة أمام الزقاق الرابط بين مدينة طنجة والجبل الأخضر، الذي سحقته الرافعة الصفراء. كذلك هو لون تلك الرافعة التي كانت تهدم ورشة السيد ألبرت المسماة فيلا جنان سيدي سعيد. كان جثمان أمي الملقى هكذا على الأرض، والملفوف في لحاف تكاد تحجبه عن الأنظار كثافة بخار العنبر والشق والداد والشب وغيرها من أنواع البخور الأصيلة، قيل أنه جيء بها من مكّة المكرّمة أو من بلاد السودان. وها هي الخالة مامية ترمي البخور في كوانين تتأجّج نيرَاناً ملتهبة. تلك الكوانين التي كانت تؤجّجها الخالة مامية بنفسها، وهي من أعز شغالات أمي وأقربهن إليها، وجمعتها بها صداقة حميمية لا غبار عليها، فأمّي لم تنسَ أبداً أصولها العمالية الفقيرة. أبوها وأخوها كانا عاملين بسيطين في ”شركة الخطوط الحديدّية“ (SNTF). غادرت الخالة مامية المنزل دقائق قليلة بعد انتهاء شعائر الجنازة ولم ألتقها مرّةً بعد ذلك رغم بحثي عنها مراراً.

1 سجادة.

كذلك ثمة رائحة الفورمول[2] المنبعثة من الحمام العتيق المحفور في أعماق المنزل البربريّ الطراز، الذي لا يعرف أحد، حتى أبي، تاريخ إنشائه على أعلى سفح من جبال أوراس. يوم وفاتها انهالت الغسالات على جثمانها الهزيل يفركنه بشيء من القسوة رغم رقّة جسدها ذي البشرة الهشّة حدّ الشفافيّة. لقد أُغمضت عيناها الزرقاوان نهائيّاً، وأغلق فمها أيضاً بعد أن كمّمته إحدى الخادمات بقطعة من الكتان الرماديّ والأزرق، كمّامة تمنعها من الكلام والعياط والزياط بعد موتها. هي أمي التي أمضت حياتها صامتة، ساكتة، لا تتفوه إلا بالقليل من الكلمات الضرورية لهذا المنزل الضخم، خاصة أن زوجها كان غليظ الصوت خشن الحنجرة، متغطرس المزاج وغضوباً لا يعرف السكوت قط. لقد استعملت الغسالاتُ حيلة تكميم فم الميتة وفق عادات تلك المنطقة من أوراس الشامخة، لكنّها وهي مرمية هكذا على الأرض، ملقاة على نوع من اللحاف، مكمومة الفم، مغلقة العينين، بدت لي دمية صغيرة مستلقيةً بضع ثوانٍ للمزاح أو اللعب. هي تلك المرأة الوديعة الطيبة والهادئة التي كرست حياتها للطاعة والصمت والفراغ وقلة الحركة وخاصّة الصبر. لقد كرّست حياتها للصبر، ثمّ الصبر، ثمّ...

2 ميثانال.

الخميس 15 يونيو 1964. لم تفارقني رائحتها الخاصّة منذ ذلك اليوم. هي الخصوصيّة التي عرفتها صغيراً ولم تتبدّل مطلقاً. لعلّ هذا الشعور مجرّد خيال أو افتراء لذاكرتي المخلخلة نوعاً ما جرّاء موتها الصاعق. رحلت أمي على أنامل قدميها الصغيرتين. هكذا خفية. ”بلا حس وبلا صدع“، بصمت وهدوء كما أمضت حياتها كلّها. إنّها ترحل الآن هكذا. تموت هكذا. وتنفلت هكذا، خفية! كأنها تودّ الهرب من هذا المكان، ”القلعة“ المسيّجة برباط نباتي في منطقة فلاحية مزدهرة جدّاً رغم تموضعها بين طيات جبال أوراس الشاهقة. محاطة بأشجار الفاكهة والنباتات البراقة والوهّاجة. تتخلّلها من حين إلى آخر آلاف الأمتار من الورود المتنوعة التي كان الأب قد استورد بعضها من بلدان بعيدة كنت أبحث عنها في كتب الأطلس: كينيا، موزمبيق، كرالة، هولندا... إلخ. أثناء الحداد توقف صديقي كمال عن بهلوانياته كأنه بدوره كمّم فمه حتى لا ينطق بأي نكتة أو يُفلت كلاماً قبيحاً أو بذيئاً كعادته.

استغربتُ موقفه الذي حافظ عليه مدة طويلة، هو المعروف بروح الفكاهة والسخرية والمفطور على البهلوانيات، إضافةً إلى امتلاكه جمالاً نادراً وأخّاذاً.

ذلك المنزل، حيث لقيت أمّي حتفها اللطيف المحتشم، كان شيء من الظلّ يطفو عليه. رأيت العم إسماعيل، آنذاك، يخرج من زنزانة الظل وعيناه تطفحان بدموع ثقيلة. لقد زعزعت وفاة أمّي جبروته المعروف، والإرادة التي عرفت لديه. قال: ”أبوك يحب العتمة لأنه أمضى حياته في السجون الفرنسية فصار كأنّه يخاف الضوء!“ لقد تعوّد أن تحيطه الظلال حيث ما كان: في السجن، البيت، المكتب، حتى في شوارع قسنطينة عندما تئج الشمس أجاً في أغسطس. كان المسكين يعيش داخل أريكة محاطة بالفواتير وأكياس الحبوب الصغيرة، وهي مجرد عينات من السلع الضخمة التي يبيعها بعد الحصاد. كأن الأريكة التي يستعملها في مكتبه باتت عرشاً مكتملاً بكلّ معانيه. كان أبي صلباً، متقلّب الأطوار، مريضاً يعاني من وطنية سليمة وغيورة. وكان يقضي وقته في مكتبه على أريكته الفخمة أمام مكتب من خشب الزيتون المزخرف تقليدياً على الطريقة البربرية والمرصّع بأثمن الحجارة.

كان قصير القامة، نحيف الوجه، رائع العينين، لا يمكن وصف لونهما بدقة. ومن النظرة الأولى، يشعّ من عينيه ذكاء نابغ وجأش ووطنية غيورة. انطلق العم إسماعيل، وهو الشقيق الأصغر لأبي، بالحديث. كان يحبّني حباً جماً لأنني أبهرته بتفوقي في الدراسة وشغفي بالقراءة وجنوني بكرة القدم. قال العم إسماعيل: ”هنا، في هذا المكتب، تعرف أبوك إلى السيد ألبرت ومن هنا نشأت بينهما صداقة كبيرة وتعاطف لا مثيل له، خاصة أن أباك كان من المعجبين بأعمال السيد ألبرت لكونه مِسْفاراً ومِجْوَالاً ومِزْوَاراً إلى كل متاحف العالم. عندما خرج السيد ألبرت من المكتب قال لي أبوك: ’إنه لقبيح الوجه وأعرج الرجل وأحول العين اليسرى! فكيف يمكنه إنتاج هذه اللوحات الرائعة؟ يا إلهي! كيف؟ هو لا يشبه أبداً لوحاته‘، ثم انطلق أبوك بقهقهة مزيّفة ومفتعلة فهمت أنها كانت علامة غيرة. غيرة فقط“.

تلك الرائحة المنبعثة من جثمان أمي كانت تطاردني حتى مكتب العم إسماعيل، الذي يتقاسمه مع العمّ يعقوب، والسيد تمسيت، صديقه من أصل يهودي. هناك اكتشفت لأول مرة، وأنا في العاشرة، لوحة الواسطي (القرن التاسع الهجري، يحيى بن محمود) المعنونة ”معركة

الزقاق" معلقة على الجدار الأوسط في صالون المؤسسة (دار المحاسبة). وعلى الجدار المقابل، في هذا الصالون الفخم، اكتشفت كذلك لوحة عملاقة معنونة بـ"جامع ساحة الحكومة". فهمت وأنا على الفطرة أن لهاتين اللوحتين علاقة مباشرة بالإسلام. لكن فهمي كان مذبذباً وطفولياً. وفي حين بدت لي لوحة الواسطي المعروفة، رائعة الجمال رغم كونها عنيفة وحربية، فإنّ اللوحة الأخرى، الأكبر، كانت ألطف ومسالمة نوعاً ما. لم أكن أعرف اسم الرسّام الذي أنتج هذه التحفة التي تمثل مسجداً من أكبر وأجمل المساجد في العاصمة. واعتدت بمرور الأيام وجود رجل أوروبي الهندام، هو من أصدقاء أصحاب مكتب المحاسبة، يأتي كلّ مساء ويجلس قبالة لوحة الواسطي لساعات كالمبهور، بل كالمعتوه، أو كالتائه تيهاً، وتذكرت ما كان يدور من كلام في المكتب حول هذا الشخص! كانت مقابلاتي ولقاءاتي، وهي كلّها خيالية بطبيعة الحال، مع السيد ألبرت، تتزامن مع العطلة المدرسية في فصل الصيف، إذ أعمل مساعداً لعمي وصديقه، وأربح بعض "الصوارد". وقد تخصّصت عمداً في العمليات البنكية لأنها كانت الأصعب، نكالاً في نفسي وفي العم إسماعيل، وحتى أحوز رضاه أيضاً. ويوم عُلّقت اللوحة الكبيرة جدّاً حاولت، دون جدوى، أن أقرأ الإمضاء. نظرت إلى العمّ إسماعيل فلم يهتم بي. نظرت إلى العمّ يعقوب فعاملني بالمثل. كانت هذه اللوحة الجديدة، إذن، تمثل المسجد الأكبر لمدينة الجزائر. على يمين اللوحة، يبرز جزء من ميناء الجزائر وساريتان تخرقان السماء الزرقاء، وثلاث حاملات بألوانها المختلفة، وهي مختلف درجات اللّون الأصفر. الأصفر تحديداً كان كفن أمّي. ومن خلف المسجد، يرى الرائي قطاراً صغير الحجم أو لعله "ترامواي" مدهون بلون أزرق، وأخيراً يظهر تمثال الجنرال بيجو يمتطي حصاناً صغيراً، أو أحد الضباط الآخرين الذين غزوا الجزائر سنة 1830. لكن، هل هذا التمثال الذي يمثّل في ذهني الجنرال بيجو هو حقيقة تمثال الغازي الذي أبرم صفقة مع الأمير عبد القادر لتكون مجرد حيلة حرب سميت "معاهدة الطفنة" ولم تطبق أبداً، بل العكس، إذ زُجّ بالأمير في السجن، ثم هُجِّر إلى فرنسا؟ في مراهقتي رغبت أن أزور تلك الساحة لأشاهد عن قرب تمثال هذا الجنرال: بيجو؟ أو دامريمون؟ أو فاليه؟ لكنني لم أجرؤ أبداً على ذلك لأن المنطقة كانت شبه محرّمة على الجزائريين... في اللوحة، يظهر هذا

التمثال محطّماً تحت وطأة العمارات الشامخة المحيطة به على مستويات مختلفة، وتظهر القصبة المبنية على هضبة عالية كأنها تسيطر على كلّ هذه المباني الهجينة التي أقامها الغزاة، كأنها قادرة على الانزلاق ثم السقوط على الساحة حيث التمثال. من هذه اللوحة، ينبع تاريخ الجزائر الكولونيالي برمّته. كنت مبهوراً بهاتين اللوحتين الموجودتين في مكتب العم إسماعيل والعم يعقوب. لوحة الواسطي كانت تنمّ عن جو حربي عدواني تنبعث منه رائحة الأموات وأصوات المحاربين وفوضى الحروب وتلوث الجثث الطافية على سطح مياه نهر الرمال الذي يقسم قسنطينة إلى شطرين. روائح الحرب وأصواتها. رائحة العفن. لون الدماء الطافية على سطح نهر الرمال. كل هذه الجثث هي جثث النوميديين والرومان والعرب والمسلمين والغوط والفيزيقوط والعثمانيين والفرنسيين. تختلط هذه الروائح برائحة موت أمي التي توفّيت سنة 1964، أو 1962؟ عندما كنت طالباً في مدرسة الهندسة المعمارية أجول ماشياً متبعثراً في أزقة المدينة الضيّقة وشوارعها الكبرى متسائلاً عن العلاقة بين موت الأم وكل هؤلاء الأموات من غوط وفندال وروم وعثمانيين وعرب وفرنسيين، وخاصة عن العلاقة بين موتها والجيوش الفرنسية التي غزت البلاد مرتين (1630 و1830).

بعد عودتي إلى منزل العم إسماعيل، حيث كنت أقيم كل صيف، كنت أحاول فهم كلّ ذلك، انشغلت بالقراءة والبحث في الكتب والمجلات القديمة. إلى أن فتحت، مصادفة وأنا في حال من الذهول والهيستيرية، كتاباً لابن خلدون:

> وأجاز طارق بن زياد البحر سنة اثنتين وتسعين للهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمئة من العرب وانتهب معهم من البربر زهاء عشرة آلاف، فصيَّرهم عساكر ونزل بهم جبال الفتح فَسُمي جبل طارق به وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصين. وبلغ الخبر لذريق فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم وأهل ملّة النصارى في زهاء أربعين ألفاً التقوا بفحص شريس فهزمه إليه ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم. وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم، فحركته الغيرة، وكتب إلى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير إذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف على القيروان ولده عبد الله. وخرج معه حسين بن أيس بن عبد الله المهدي الفهري، وخرج من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر. ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء. فأجاز إلى الأندلس وتلقاه طارق بن زياد فانقاد واتّبع. وتمم موسى الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجنوب وصنم قادش في الغرب

ودوخ أقطارها وجمع غنائمها...

بعد هذه القراءة فهمت الكثير ولم أفهم شيئاً قط. أصبحت بسرعة سميناً وبديناً وسقطت في مطبة الحَشْورَةِ. ذلك أن رائحة أمّي لم تفارقني منذ ذلك النهار الذي فارقت فيه الحياة كأنها لاذت بالفرار من هذا المستنقع الفَخِمِ والمُخْضَوضِر ذي الأروقة العميقة التي تدور حلزونياً حول تلك الحديقة المملوءة شجراً ووروداً وزهوراً وطحالب. اشتكيت من سمنتي إلى كمال، فقال: ”أصبحت أجمل هكذا! اترك كلام الناس وسخرية البهائم“. هل أصبت بمرض الحشورة بعد وفاة أمي، أو تحديداً بعد انتحار أخي الأكبر عندما بلغت 15 سنة؟

كانت الحرب الحقيقية هذه المرّة، ولم تكن مجرّد انتفاضة أو عصياناً. كانت حرباً! فكل الانتفاضات وكل المناوشات، منذ الغزو الفرنسي سنة 1830، فشلت، بما فيها مجزرة سطيف وخراطة وقالمة (8 مايو 1945) التي خلفت 45.000 من الأموات في غضون أسبوع أو أقل. كأن هذه المجزرة كانت تحضيراً للحرب الحقيقية، الحرب–الثورة (1954–1962). في الثانوية، قال أستاذ اللاتينية وهو مخنّث جميل وطيب: ”Pueri eavete canem!“. لم أفهم ما وراء المعنى. هل كان يموه للحرب الضّارية وهي في بدايتها؟ ازدادت سمنتي مع اشتداد الحرب ولم أفتأ أنتفخ وأنطمس. آنذاك كان أبي في السجن، وانضمّت أمي، بشَعرٍ اصطناعي واسمٍ مستعار، إلى المقاومة في قسنطينة سرّاً.

حاول العم إسماعيل والعم يعقوب وجارهم العم أبراهام تجاهل تضخمي. وفي يوم، زارت مكتب المحاسبة سيدة من أصل فرنسي اسمها مارسيل مارتينيه، سمراء تشبه الجزائريات، ترتدي ثوباً أنيقاً وقبعة عريضة جدّاً مزركشة بالكثير من أنواع الطيور والزهور المصنوعة من القطن والحرير والكتان الخام. كانت القبعة تأكل وجهها. دَخَلْتُ مكتب المحاسبين فسمعتهم يتهامسون بشيء من السّرية، ويتحدثون إليها عن نصف أختي من ناحية أبي (زهرة) المربية، وقد أتى بها من بلد بعيد جدّاً ورفض أن يذكر حتّى اسمها. كانت زهرة أعجوبة العائلة بجمالها وجرأتها وفحاشة كلامها وانحرافات لباسها وعريها المتطرف. قبل انصراف السيدة مارسيل مارتينيه احتشد القوم بصمت جليل أمام لوحة السيد ألبرت حيث المسجد الأكبر المبني في ساحة الحاكم السامي الفرنسي. أعدت النظر إلى تلك اللوحة حيث المسجد

الرائع (بُني سنة 512 هجرية) المحاط بحاملات الورشات وأعمدة البواخر. كان الوقت صيفاً والحرّ لا يطاق، كأن موجات الحرارة تستقطب كل شيء فتروّح السيدة مارسيل بمروحتها اليابانية وجهها الأسمر وكل العصافير والزهور المنقوشة على قبعتها الطريفة. العم إسماعيل أيضاً يروّح بمنديله والعرق يتسرّب من عنقه إلى قميصه الأبيض. أما العم يعقوب، فلا يبالي. حين انصرفت السيدة الأوروبية قالا لي: ”هذه السيدة فقدت زوجها منذ أسبوع فقط. هي صديقتنا، هل فهمت؟ هل تفهم؟ صديقتنا وصديقة الحركة الوطنية. وهي جزائرية حقيقية، جزائرية القلب والروح. هي من سلالتنا ومن المقاومات الكبيرات... سوف نحدثك عنها مرة أخرى... بإيجاز، هي زوجة السيد ألبرت!“

مسجد ”المسمكة“، أي مسجد ساحة الحاكم الفرنسي، مثمّن الهندسة. بعض المارة من حين إلى آخر. الساحة واسعة. من النافذة، أرى الناس والمارة كالنمل المسكين الضائع. أثناء نظري إلى هؤلاء أتذكر السيد ألبرت وقبحه واعوجاج رجله اليمنى وخزرة عينه اليسرى، كما قيل لي. تذكرت أبي وهو يسأل العم إسماعيل: ”كيف؟“ كنت أثناء العطلة الصيفية أعمل في ديوان المحاسبة الذي يديره العم إسماعيل والعم يعقوب اليهودي الأصل. لقد تعارف الرجلان لأوّل مرّة في سجن سركاجي الموجود في قلب القصبة، وهو من أقسى السجون الاستعمارية. كذلك تعرّفا هناك إلى العم أبراهام أثناء الاحتلال الألماني. لماذا سُجنا؟ لماذا تعارفا؟ كم دام سجنهما؟ أسئلة دون جواب.

إذن، كانت الحرب! الحرب الحقيقية، الثورية، المتغطرسة المتعنّتة، العنيدة. كنت أمضي تسعة أشهر في قسنطينة تلميذاً في ثانوية بن باديس، وأشهر الصيف الثلاثة في بيت العم إسماعيل الموجود في الجزائر العاصمة. في قسنطينة، كرّست أوقاتي للمطالعة وممارسة كرة القدم، رغم سمنتي، مع أبناء الحيّ، وقضاء الساعات الطويلة محشوراً في غرفة الخياطة أنظر إلى أمي وهي تخيط قَفاطين رائعة القماش وغريبة الأشكال والألوان مستخدمةً ماكينات للخياطة مختلفة الأنماط والماركات (Siemens, Nuslli, Borletti, Singer...). كذلك كنت أبيع صحيفة ”الحرية“ التابعة للحزب الشيوعي الجزائري الذي كان جدّي لأمّي، وخالي، ناشطين فيه. كان هذا الجد الشيوعي رجلاً قصير القامة، مفتول العضلات، ذا وجه

جميل جدّاً. أما جدي لأبي، فكان ثريّاً يعيش تحت سلطة وكابوس زوجته، تلك المرأة الضخمة التي يخشاها كثيراً ويحبّ طبخها الرفيع الذوق.

إنها الحرب. عمري خمسة عشر، جدران المدينة كلّها ملطخة بشعارات وطنية مكتوبة بالطباشير الملّون: W.F.L.N. ABAT LA FRANCE. W MOC. ABAT LE GALLIA، وكانت الشعارات الأخيرة ترمز إلى نوادي كرة القدم حيث لكل جالية فريقها. أبي الذي أمضى عشرات السنوات في السجن كان يحرّضني على القتال والنضال يومياً حتى أُصبت بالهلوسة. كذلك كان يحرّضني على كره المستعمرين. في الثانوية، عانيت من سخرية أقراني من سمنتي (يا سمينة وكال العجينة! يا فكرون وكال المقرون، Bud Abbot، Boffy Botty). تلك الكلمات المصطنعة التي كانت تجرحني في العمق، والتي لم تندمل جراحها حتى اليوم وأنا كهل ذو مكانة في المجتمع وأمتلك جسداً أهيف. أبي كان يقول إنّ سمنتي ناجمة عن كسلي في القسم، رغم أنّني كنت أفضل تلميذ، فيما كانت أمّي تقول: "لا عليك هذه ولدنات. هم يغارون منك لأنك فحل ونجيب (خليك منهم هذوك حمير وولاد لحرام)". أما العم إسماعيل، فكان يدافع عني: "أنت بطل الـ20/20، لذا يغارون منك خاصة أن أستاذك في اللاتينية واليونانية يقول إنّك عبقريّ". أعلم أن هذا الأستاذ كان صديق أخي الأكبر "الغائب"، وأن كلام العم إسماعيل مجرّد مجاملة!

أثناء الحرب التي دامت سبع سنوات كان أبي يرّدد شعاراً مقلداً مقولة أراغون: "لن أكره أبداً الشعب الألماني!" فيقول: "لن أكره أبداً الشعب الفرنسي!" لأرد عليه: "لكن هذه الحرب طالت وعدد الأموات أصبح لا يطاق!" يصمت قليلاً ثم يأتي بكتاب المقدمة لابن خلدون: "... ودوّخ موسى أقطارها وجمع علائمها وارتحل إلى الشرق، حاملاً بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر"، قائلاً: "كان موسى سميناً أيضاً وهذا لم يمنعه أن يهزم العالم بأسره".

كانت أمي تشارك يومياً في المظاهرات ضدّ الجنود الأجانب وترميهم بجثث الحيوانات المتعفنة. وفي أحد الأيام، رشقتهم بسلحفاة عجوز فسقطت أعضاؤها المهترئة على وجوه الجنود المتهورين وتحديداً على وجه أحد الضباط. أما معلم **القرآن**، فكان يكرّر: "ذكّرهُمْ!

ذكّرهم! فإن الذكرى تنفع المؤمنين!" أتذكّر تلك المرحلة عندما كان هذا الفقيه بالضبط، وبمساعدة أبي، يلف الفلقة حول رجليّ ويضرب بعنف. وأبي: "لا ترحمه، فهو عاصٍ!" وبعد انصرافه، قال المعلم: "اكتب". فكتبت بحروف رديئة ومعوجّة بالقلم المغموس في قارورة الحبر النباتي الذي لا تزال رائحته ترافقني في كهولتي: "ثم جاءت الحرب. باغتتنا الحرب بغتة". فرأيت المعلم يفرك أصابعه فرحاً وزهواً كأن الكلمات القرآنية تنبع منها. ومن حين إلى آخر، كان هذا الشيخ يفرش حصيراً فخمة أمامي ليحظى بمحبة الأب. ثم يجلس القرفصاء، وتبدو ألوان الطباشير كأنها تنبثق من بين أصابعه الرقيقة كذلك.

الخامسة صباحاً. السماء حائرة بين الليل والنهار. الجو كذلك بين بين. مثل دموعي التي تريد وتأبى أن تطفر من عينيّ وتتدفّق على وجنتيّ، فأتجرعها في عمق حلقي. "يا سمينة وكّال الطمينة. يا بهيمة وكال العجينة Moffy Boffy, Bud Abott, Botty Totty, Baba Patata, Totty Botty". اصمد. المؤدب يأمرني بالجلوس، فأجلس، ولا دمعة تخرج. بعد عودتي من هذا الجحيم تقول أمّي: "لا يهمك! لا تكترث! أشياء صبيانية وخلاص!" وعند اقتراب الساعة أحسّ الوقت ينساب عليّ ويطلي جسمي بأكمله. الخامسة صباحاً بالضبط. الشمس تبزغ فجأة. المناخ مزيج من الرطوبة والضباب. شمس، هي بيضة متقاطرة. أبي وكلماته الدموية الجارحة. جو ثقيل وفاتر في آن. ثقيل على كل حال. كل هذه القنابل وكل هذا النّابالم المرمي من الطائرات وكل هذه الحرائق التي تلتهم الأحياء القصديرية وكل أولئك النسوة المغتصبات وكل هذه الفتيات المرجومات. وكل هذه الفراديس العسلية: "وقد بلغكم أنني أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد...".

وأنا قائلاً: "مرة أخرى، الجنس المهووس والفرج المفتوح على شقتيه... أو شفتيه... الجنس ثم الجنس... ثم الشرج... والإست... من بنات اليونان والحور الحسان... معركة الزقاق أو معركة الإست؟ ونحن كذلك قمنا بأشنع الأمور... (العرب والمسلمون وكل الملل التي تعشق محمّداً... كذلك قتلنا وذبحنا وقمنا بالمجازر. لأن كل شعب خبيث... إلا أنت يا

عمر؟ وهل كان عمر أشقر حقيقة؟". يسألني كمال ويزيد في الطين بلة: "نيك أمهم! نيك أمهم! تسقط فرنسا! هل جُننت يا صبي؟"

وأمي متوسلة: "اقرأ رسالة طارق بن زياد إلى جنده ولا تغضب... لا تنزعج... حقيقة إننا أدخلنا الحرب إلى قعر ديار الغوط والفيزوقوط... لكن كل الشعوب فعلت ذلك وستعيده مراراً". يزيد كمال ويكرر: "لا تنسَ أننا فتحنا مصر والشام والمغرب برمته والأندلس وصقلية وكذلك فرنسا التي تقهرنا اليوم... التاريخ؟ هو الانقلاب الدائم للصورة... وها هم اليوم يحاربوننا ويغتصبوننا... نحن في حرب ضروس!" بلغ السّيل الزبى وأصبح معلم **القرآن** يبحث عن أصابعه المتجمدة من البرد، فأصبح يهذي بين النفاق والنزاهة. لكنه لم ينسَ أن يعيد الكرّة: "اكتب كلمات الله الكريمة!" يملي علي سوراً رهيبة مزعجة ومخيفة تحرق أذني وتلهبهما. "ويسألونك عن المحيض قل هو أذى...". أين أمي، إذن؟ أين اختفت؟ هي التي أمضت حياتها تخيط وتطرز الأشياء الجميلة جالسة وقورة وراء ماكينات جاءت من أصقاع العالم (Boretti، Singer، Siemens، وغيرها). لست أدري الآن أين ذهبت! لست أدري... كانت طفولتي، ثم مراهقتي، كارثة رهيبة بسبب تلك السمنة التي تجعل جسمي يفيض عن هيكلي العظمي حتى الغثيان.

"إن الأطفال لا يرحمون، يقول العم إسماعيل، فلا تكترث، شدة وتزول! أنت تلميذ 20/20. إنهم يغارون منك، خاصة أنك لدن وتحسن لعبة كرة القدم رغم بدانتك (Baba، Batata، Botty Totty، سمينة مملوءة بالفرينة إلى المناخير)". أصمد أمام سيل الكلمات ولا أترك دمعة واحدة تطفر من عيني. عند الكهولة بدأت أتذكر تلك الكلمات والجمل وبدأت أفهم أن الأطفال رهيبون بقسوتهم، لكن الحنين يحملني أحياناً إلى تلك الطفولة فأقول إنني ربّما كنت أبالغ في وصف صعوبة تلك الأيّام، ربّما تكون الحرب هي السبب. لقد زرعت فيّ رعباً وخوفاً لا ينتهي. يأخذني الحنين فأتذكر طينة اللين، تلك الطينة التي كنا نطلسها على اللوحات القرآنية ونكتب عليها بحروف جميلة... أين أمي، إذن؟ لكن لم أنسَ السورة التي كان يصدمنا بها المؤدّب: "ويسألونك عن... قل هو أذى...". أقول: لا، لا! أمي طاهرة... أمّي...

هي أمي التي كانت تقصّ علينا يومياً مجرى المظاهرات التي تشارك فيها نساء المدينة أثناء سنوات الجمر والثورة والحرب. فيستعملن لذلك الخضراوات الطازجة وجثث الحيوانات الميتة والنفايات الغاملة، ويضربن بها العساكر الفرنسيين و"الحركة" الجزائريين والمرتزقة السنغاليين، وقد تخصّصوا ببراعة ولهفة غريبتين بالتعذيب والتنكيل والقتل والاغتصاب وسرقة الجواهر. كانت النساء في حروبهن يستفدن من تضاريس المدينة الوعرة خاصة أن قسنطينة مبنية على صخرة شامخة تنطلق منها الأزقة الضيقة والمنعرجات السريعة والملتوية بين هاوية وهاوية، وتصب كلّها في وادي الرمال الذي هو سيل جارف تتلاطم فيه الحجارة الضخمة. هكذا، يموت هؤلاء الجند وقد أخذ منهم الرعب مأخذه، فيسقطون بأسلحتهم الثقيلة في النهر الهائج. وبين شرفات المدينة وأعاليها كان حانوت بائع الفطائر، وهو من أصل تونسي، يرمي بقازانه المملوء زيتاً حارقاً على العسكر فيهلَكُ عددٌ آخرُ من الجيش الغاشم. يشعر بنشوة النصر رغم أسفه على زيوته التي فقدها. كان الجنود مذعورين مغلوبين وفارين أمام حيلة نساء قسنطينة ومكرهن وطريقتهن في القتال دون سلاح، ما عدا الشجاعة!

كان المولى (أبي) يكرر في تعليقاته السياسية أن الحرب ستدوم سنوات طويلة لكنه لم يفكر أبداً أن النساء بدورهن سيخرجن ويقاومن هذا العدو اللّدود بطريقة جهنمية، فيتغلبن على الأجنبي ويكسرن العادات البالية ويحطمن التقاليد الذكورية القديمة والعادات الإقطاعية التي تمنع على المرأة المشاركة في مثل هذه الثورات والحروب. كان أبي مندهشاً من تلك المظاهرات النّسويّة ويتمتم: "عيب هذا! عيب أن تخرج النساء ويتظاهرن ويكتسحن المدينة من أعلاها إلى أسفلها... لا يجوز! عيب هذا!" يريد الحديث معي فأتركه في الصباح الباكر متجهاً نحو المدرسة القرآنية قبل طلوع الشمس في مناخ مطلي بأصابع برتقالية ووردية معلنة بزوغ الشمس رغم برودة الطقس وقد نزلت درجة الحرارة تحت الصفر. عند مدخل البهو يقترب مني الشيخ نافخاً في يديه بخاراً يخرج من فمه كبركان صغير محاولاً تدفئتهما، لكن دون جدوى. يجلس على الأرض وينهمك في تحضير المداد المصنوع من نباتات غريبة ونادرة يتركها تتمرث في قارورات صغيرة جميلة فيها شيء من الاعوجاج.

إذن، كانت الحرب في أوجها، وكان نهر الرمال يلفظ يومياً مئات الجثث الفرنسيّة المنفوخة والمزرقّة وهي في حالة تعفن متقدمة. مثل هذه الأحداث عاشتها المدينة منذ زمن طويل، أي ابتداء من 1846 عندما سقطت قسنطينة بعد سنوات من المقاومة. كان ذلك في عهد صالح باي الذي رأس المقاومة، خاصة أن قسنطينة مكثت تحت الحصار الفرنسي خمسة عشر عاماً. وبعد سقوطها عاث الجيش الفرنسي فساداً في الأهالي. دمّر المساجد والقصور واستعمل جنوده الخشب الثمين المزوّق للتدفئة. أعدم آلاف المواطنين، قُطعت رؤوسهم بالسيوف وعُلقت على الأسوار التي كانت تحيط بالمدينة ولم يبقَ منها إلا رماد ودم وحرائق مهولة تحت سطوة الجنرال دامريمون. قلت: ألم نفعل الأشياء الرّهيبة نفسها في الأندلس وصقلية وجنوب فرنسا؟ تقول أمي: "اخرس! لا يمكن مقارنة هذا بهذا"، فأجيبها: "كلها حروب والحروب وسخة دائماً". يقول كمال عن ذلك: "بصح لازمة... الحرب لزوم يا راجل!" أما أبي، فيتلعثم ويقول فجأة: "هل تعلم كم سنة دامت مقاومة أحمد باي وأخيه صالح باي؟" لم أجبه لمعرفتي أنه يحب التفاصيل والجزئيات التي تكوّن التاريخ وانزلاقاته وانقلاباته، فلا يفوته شيء يخص التاريخ بصفة عامة، والحروب خاصة. ثم يعيد الكرّة: "كم عدد الجنود الذين رافقوا طارق بن زياد أثناء معركة الزقاق؟" ويجيب بنفسه: "300 من الجنود العرب و1000 من البربر!" فتذكرني الأرقام بلوحة الواسطي المعلقة في مكتب العم إسماعيل، التي نورت طفولتي ومراهقتي. أما قوائم الأحصنة المتماثلة على اللوحة، فكانت تقدم إلى الناظر انطباعاً وهمياً يضفي أو يوحي بحركة لا نظير لها، ووفق روايات مختلفة (البلاذري وابن بطوطة وابن خلدون والإدريسي). يقول أبي فجأة: "ترجم هذا النص إلى اللاتينيّة"، فأتجاهل طلبه وأتركه يترجم بنفسه. وفجأة أقاطعه: "لقد خرجت النساء أيضاً في مظاهرات ضخمة يوم 20 أكتوبر 1955 وهكذا حطّمن النظام الإقطاعي القديم". بُهت الذي كفر! فبقي مصدوماً أمام استفزازاتي، ثم قال بعد دقائق طويلة: "الحرب أولاً وقبل كل شيء قطيعة! نعم قطيعة! أعترف لك بذلك! نعم، قطيعة رهيبة". كان صوته يحمل حشرجة المغلوب، "فينبهر هكذا وعادة المغلوب بغالبه..." (ابن خلدون. المقدمة)، لأنه لم يقبل أبداً مشاركة النساء في مظاهرات قسنطينة، إذ اختفت العصافير وغشّى الظلام كل الناس

والأشياء والأمور "بملايات" النساء السوداء (10.000 جندي فرنسي تحت قيادة دوق أومال غلبوا نهاية الأمر، واحتلوا المدينة، وأطاحوا بأحمد باي وأخيه صالح باي).

قرر الأعيان بعد المظاهرة التي أقيمت يوم 20 أكتوبر 1955 إقامة صلاة الغائب. في تلك الأثناء، جُمعت آلاف الجثث في حاملات البلدية ورُمي بها في النهر بشعبه الهائجة ومياهه العميقة، بينما كان بائع الفطائر التونسي لا يفتأ يبكي الخسارة الفادحة التي سببتها المظاهرات. قيل كذلك أن طفلاً صغيراً (كان يملك كناريَ عدّة) قطع عنقه سنغالي طويل القامة (طوله أكثر من مترين) لأن أحد الكناري المروض والمدلّل والذكي تبوّل على وجهه بأمر من الطفل. أما أنا، فزدت عناداً وبقيت أكتب الشعارات الوطنية على سطح المنزل بطبشورة صفراء بصحبة صديقي كمال. هل أصبحت بديناً وسميناً في تلك الفترة؟ سأل الطبيب العائلي بروك: "إنك تعاني من اضطراب غدّيّ جرّاء الخوف!" لكنه أيضاً كان بديناً ومن أصل فرنسي ومتعاطفاً مع المقاومة الوطنية. هزئ الأطفال بهذا التشخيص وتمادوا في نعتي: "Totty Boffy، Bud abott، سمين سمين معمر بالفرين! سمين سمين معمر بالشحيم".

آنذاك نظّم أبي صلاة الغائب عن روح أخي الأكبر الذي كان اسمه محظوراً في البيت. قال البعض إنه توفّي في المنفى. وآخرون قالوا العكس، أي أنه لا يزال حيّاً يرزق ويقطن في لندن حيث يمارس عمله طبيباً جراحاً في أحد مستشفياتها... تتوالى الخرافات حول هذه القضية التي تحوّلت إلى شيء من التابو واللامعقول القاتل. استمرّ القال والقيل حتى رأيتُ نعشه في مرسى عنابة ينزلق فوق رأس حاملة تشبه تلك التي يرسمها السيد ألبرت في لوحاته المتعددة وتلك المستخدمة في ورشة تحطيم منزله، وتشبه كذلك الحاملات الصفراء عادة. قال أبي عندئذ غاضباً: "هذا جثمان أخيك!" دون كلمة أخرى. كما قال لي بعد هذه الخرجة[3] الغريبة: "حتى موسى بن نصير كان هو الآخر بديناً ولم يكن قادراً على ركوب حصانه إلا بمساعدة ضباطه... هذا لم يمنعه من غزو الأندلس وجنوب أوروبا بأكمله! كفاية إذن من البكاء على سمنتك وهي وليدة الكسل! نعم، الكسل!" بعد هذا الكلام وهذه الجنازة وصلاة الغائب صعدت إلى السطح وكتبت بلغة العدو وبطبشورة حمراء: Abat la France!

Algérie Vaincra. حرصت ألا أرتكب أيّ خطأ أثناء كتابتي تلك الشعارات لأثبت للرِعاء العسكريّ إتقاني الفرنسيّة أفضل منهم.

3 الهجمة أو التعنيف.

كان أبي مولعاً بالسياسة. وكان وطنياً عريقاً، لذا أخذني، منذ بلوغي الرابعة، كلّ يوم إلى الكتّاب، إلى ذلك الشيخ الضرير الفقير والمسكين. هناك كان حافظ **القرآن** يزحف نحو أبي بطريقة دنيئة وخسيسة ويبدأ تحضير المداد العتيق ليبهره، لكن أبي لم يكترث له أبداً. كان الشيخ أثناء زحفه نحو أبي يظهر، دون قصد، ذكره العجوز بسبب سرواله الفضفاض المهترئ المثقوب. لم يكترث أبي أيضاً لذلك المظهر الحزين والمضحك في آن، أما أنا، فكنت أعلم أن من عادات الشيخ إبراز قضيبه الصغير أمام التلاميذ عندما يتبول في علبة من المعدن المصدد، مظهراً عريه ومشهراً، دون عمد، ذكره السخيف المتجعد. كان فقيراً ومسنّاً جدّاً. وذلك الذكر، الشيء، المتدلي بين فخذيه، ذي اللون القرمزي، لم يكن غير لحمة طرية هشة متقلصة متجعدة متقاطرة ومتريقة إلخ... هذا "الشيء" الوردي قليلاً والكستنائي بعض الشيء. ثم الأشياء المتدلية، الخصيتان المسترخيتان الوسختان والمرعبتان، خاصة أن الأطفال كانوا يظنون أن الشيوخ يفقدون هيكلهم الجنسي بمرور السنين. الحرب. ثم الحرب. الحرب لا تزال قائمة، بل تزداد عنفاً ووحشية. المدن والمداشر والقرى مملوءة بالقنابل المليئة بالنابالم ومواد كيمياوية مختلفة. الحرب بيومياتها الدمويّة، بقتلاها والرؤوس المقطوعة و... الحرب العصيّة على النسيان وقد تزامنت مع هذه السمنة الرهيبة التي عانيت منها لسنوات تحت الضحك الهستيري لزملائي والكلمات الجارحة من إخوتي وأبناء عمي. كذلك قطعُ رأس صديقي الصغير، مربّي الطيور الجميلة التي علّمها، هو الموسيقار البارع، تغريد النشيد الوطني، بسيفٍ من سنغالي تتجاوز قامته المترين أو أكثر. لعلّ هذا النشيد كان السبب في موت صديقي الذي بقي بلا رأس لثوانٍ وأنا أحاول... أحاول ماذا؟ أسّست هذه الجريمة التي شهدتها الكابوس المركزي الذي لم أنسه أبداً.

الأربعاء 26 يونيو 1956، إذن ومن جديد، صلاة الغائب وصلاة الحاضر. ترقبت لساعات طويلة، وطُفت ساعات أخرى حول الباخرة التي تحمل جثمان أخي الأكبر،

المغضوب عليه من الأب لكونه، وفق الإشاعة، لوطياً متخنّثاً وجراحاً ماهراً. تأخرت الباخرة وأنا واقف كالمشدوه برفقة كمال على رصيف ميناء عنابة وقد جفف الحر حتّى مياه البحر. الأربعاء 26 أكتوبر 1956. ذهبت إلى الميناء متجاهلاً نصائح العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام، لأنني أردت أن أكوي نفسي بنفسي، وأزيد على حالة الحرب والبدانة حالات تعذيب أخرى لذاتي. حين وصلت الباخرة وظهر نعش أخي متدلياً من الرافعة الصفراء وُضع الصندوق في سيارة العم يعقوب واتجهت مباشرة نحو المقبرة دون التوقف في بهو المسجد كالعادة، فأخي كان من المغضوب عليهم، فاسقاً وماجناً و... لوطياً!

في إثر تلك الكوارث جميعها، حسمت أمري أن أبدأ نظاماً غذائياً صارماً يعينني على تخطّي الحرب، وموت صديقي مربي الكناري، وموت أخي المتّهم باللواط. كذلك لم أنسَ يوماً مياه نهر الرمال الهائجة دائماً، المياه الصفراء قبل أن تضمّخها دماء ضحايا الحرب بالأحمر بعد سنوات. أحياناً عند دخول الكتّاب فجراً تتبدّل أحوال السماء فيصطبغ الأفق بخطّورديّ تغشاه بعض الصفرة، وتبدأ العصافير "الفقيرة"، التي لا تباع في أسواق الزهور، بالتناغم، ثمّ... ثمّ... رفعت رأسي وقد توغل الفجر، أو ربّما المغيب؟ في أعماق الفضاء والمحيط، فرأيت رفوفاً من العصافير تقف على حافة الزاوية الشرقية من سقف الكتّاب، لتبرز أشكالاً رهيبة من الظلال العاتمة في السماء التي لم يتجلَّ بعد لونها الأزرق، عند طلوع النهار، ثم ألوانها الباذنجانيّة عند نهاية النهار... ولم يزل نور الفجر، أو ربّما الغسق، يتباطأ في انتشاره عبر المحيط كله، أي عبر النافذة الوسخة القذرة والفريدة من نوعها... لا أنظر إلى الشيخ وهو يهرهر كلاماً لا أفهمه. فأغوص في حلم الذكريات...

أتذكر جثّة الكناري التي اخضرَّ ريشها بعد أن قتلها الجند بسيوفهم البرّاقة والطويلة جدّاً. كارثة من الريش الناعم والدّم المتقاطر من القفص الذي هرسه السنغالي هرساً، ودهسه دهساً، فعمّت الفوضى في كل مكان وبقي الجند يضحكون بهستيرية تزيد من سمرة بشراتهم... كذلك، بالطريقة نفسها، أتذكر قرص الشمس البازغة من وراء مكتب الأب، والتي تُنصّب فوضى أخرى تخلط الأمور والأشياء وكتب الحسابات ومراجع الحقوق التجارية، وتحطم الرافعات والآليات المتحركة من وراء الزجاج التي تنتشر في ورشة ضخمة افتتحها

أبي لبناء عمارة جديدة ليكاثر أعماله ويراكم الأموال، كأنه بذلك لا يبتغي الربح السريع فقط، وإنما يقصد استفزاز البنّائين والجيوش وكل من لا يساند الثورة من الموالين لفرنسا ومن الخونة (الحَرْكَة)، الذين كثيراً ما نجد جثثهم ملقاة على الأرض في الصباح الباكر ونحن في طريقنا إلى الكتّاب أو المدرسة الفرنسية، لكون المستعمر كان قد منع العربيّة في تلك المؤسسات... أشعر أن الشمس تتلاشى وتميع متخذة أشكالاً مستطيلة ثم... فجأة، لم يعد هنالك شمس قط! ليس لأنها غابت عند الغروب بل لأنها اضمحلت هي الأخرى بسبب هذه الحرب الضروس التي كنا نعيشها يومياً.

عندما تبرز رافعات الورشة تبدو لنا أشبه بآلهة تحتلّ الفضاء برمّته، آلهة تموج في أزرق السماء متخذة هيئتها الخاصّة بين العصافير التي لا تكترث للحرب والأقواس الوليدة التي تكوّن نسيج السماء، فتخترقه وتغوص فيه لتنسج كتلاً تملأ الفضاء إسمنتاً أزرق صلباً منتفخاً ومتورماً يجعل من السماء بطاقات بريدية مثل تلك التي يرسلها إلينا أبي من أصقاع العالم ومن المدن الغريبة النطق، متراصة ومتكومة ومتراصة من جديد، صفراء ثم شهباء عندما تمر الحاملات POCLAIN أمام الشمس، ثم زرقاء عندما تمر BOUIGUES أمام سحابة ما. وقد فهمت بعد أشهر أن هذه الكلمات BOUIGUES، POCLAIN ما هي إلا ماركات وعلامات المصانع الأجنبيّة التي تُصنع فيها هذه الآلات الغريبة الشكل والشامخة شموخاً لا مثيل له. تذكرت تلك الآليات يوم بدأت شركة محلية هدم منزل وورشة السيد ألبرت الموجودين على ربوة في حي بوفريزي المشرف على البحر.

صلاة الميت إذن. صلاة الغائب. برفقة صديقي كمال انتظرت أيّاماً كثيرة وصول الباخرة التي تحمل نعش أخي الأكبر. كان مشمّعاً بالشمع الأحمر، ومغلقاً بقطعة من الرصاص الغليظ كتب عليها: Douanes Françaises. طُلب مني ومن كمال العودة إلى المنزل بسبب تأخر الباخرة وهول الحرّ وحدّة القيظ. تلك الباخرة التي كانت تتعرض لزوبعة قرب السواحل الإسبانية. رفضتُ ترك الميناء، وكذلك كمال. فهمت آنذاك أن نهر التاريخ ينقسم إلى قسمين: ما قبل الحرب، وما بعد الحرب. لأن العالم لا يعرف إلا الحروب، وقال كمال: ''ديما كاين حرب، وتجي حرب وتروح وتجي حرب أخرى! إذن فالحروب متتالية والتاريخ مخيف...''.

قلت بدوري: "يعيش العالم بأسره حروباً مميتة على الدوام، عشرات الحروب التي تدمر العالم". قال كمال: "موهبة الإنسان هي الحرب! ليس له موهبة أخرى. الحرب! ثم الحرب! فهو يمارسها كمن يمارس الجنس، هذه هي نشوته الحقيقية... يتكلم الناس على الحروب الكبرى والعالمية لكنهم يتفادون الحرب الإسرائيلية ضد فلسطين. وحرب الجزائر... واليوم حرب سوريا وحرب العراق...". لذا، كنا، أنا وكمال، نترقب أثناء المراهقة، وبشيء من العنف والعنجهية، انتهاء حرب الجزائر. لكن في الحقيقة لم أكن أفقه شيئاً من هذه الأمور السياسية والعسكرية، فلم أعد أحتج ضد هذه الجغرافيا، جغرافيا الكوارث الملطخة بالدماء والبول والمخاط والحيض والقيح والسوائل والدموع والجنب والرعام، المجهولة الاسم لأنها تدخل في خانة المسكوت عنه، والعوامل الكيمياوية وكل العوامل الأخرى.

فجأة، دون أن أعي، فقدت بدانتي في أحد الأيّام فيما لا تزال الحرب قائمة. نبّهتني إلى ذلك ملاحظةٌ من أحد أصدقاء أبي، بينما تجاهل كمال الأمر ما زاد من حبي له وحوّل صحبتنا عشقاً لاهوتياً. حين فهمت ما حدث لجسدي رفضت أن أنظر إليه في أي مرآة. ضحك كمال مني وقال: "أنت جبان!" جاوبته: "لماذا الفرح بجسم رهيف ورقيق، والحرب تلتهم البلاد بأكملها؟ خاصة بعدما باتت قناعتي راسخة ونهائية بأن الموت أمر طبيعي وتقليد يومي من أشياء الحياة. ينبثق في يوم من الأيام مثل بروز الضوء وجعجعة دود القز الذي كنت أربيه بحنان وخفية من العمة فاطمة، الخادمة العجوز التي كنا نهابها ونكرهها ونحبها في آن، خاصة أنها تجاوزت 100 سنة حسب إشاعة عائلية قديمة". كانت العمة فاطمة تكره دود القز لأنه يلوث المنزل بسائله الأخضر... شيخ الكتّاب يقول ويعيد: اكتب! اكتب! فأكتب الآيات القرآنية والشعارات السياسية والمعادلات الجبرية والقواعد النحوية... اكتب... اكتب، حتى الأرق! ثم من جديد أكتب الآية القرآنية وأحرّفها بغير قصد لأنّني أجهلها في الحقيقة: "وابتعدوا عنهن عند الحيض"، وأقول: "نعم شيخنا، عند الحيض"، لكنني كنت أكتب هذه السور ولا أعترف بها. كنت أتحايل دون وعي، هكذا عنوة مع الشيخ ومع الأب ومع الحرب. "وإذا أتاهن الحيض فاجتنبوهن". نعم! نعم! لهن الحيض ولي السمنة. ألم تكن طفولتي جهنمَ مفتوحة على مصراعيها؟ ألم أكن أتلوع تحت الشحم والدمع ودم الحرب وموت الكناري

وموت صديقي الصغير الذي كان شغوفاً ليعلّم طيوره النشيد الوطني وهو محظور، وموت أخي. ومثلما كنت مولعاً بالآداب واللّغات القديمة والحديثة والتواريخ والرياضيات وكرة القدم، فألعب، رغم سمنتي، في مركز المدافع الذي لا يمكن تجاوزه! كنت مولعاً باللغات حية أو ميتة. *Laudate peuri nulla in mondo pax sincera in fuore*، يقول أبي: ترجم يا غلام إلى العربية! ترجم كلمة، كلمة: *Laudate* افرحوا/ *pueri*أيها الأطفال / *nulla* أبداً / *in Mondo* في العالم / *pax* سلم / *sincera* صادقة / *in furore* في حالة غضب.

أين تلاشت طفولتي؟ الطيور أمامي تخرق السماوات وأنا ذاهل كمن لم يفهم شيئاً من أمور الحياة والبشر والكون (طاطا بطاطا/ سمينة وكّال العجينة). أي كلمات يمكنها وصف الأفكار المبهمة التي تتبعني حتى عتبة الكتّاب، ثم الألوان والأشكال والقوالب والأحجام والبنيات التي تتبعني حتى عتبة الثانوية، ثم إلى عتبة مدرسة الهندسة المعماريّة. ثم تبدأ الشمس بالاصفرار رويداً رويداً. بعد ذلك خط أحمر. قرمزي. بضع دقائق وينطفئ. الأفق الوردي يرسم خطاً دائريّاً. وداخل القسم تذهلني حاملة زرقاء تدور على نفسها بشطحة تذكرني بالدراويش الذين يرقصون في المناسبات الدينية. ذلك أن وراء بهو الثانوية توجد ورشة مملوءة بالآليات ذات الألوان المختلفة تقتحم الفضاء كالسّهام. لكن كل هذه السهام تبدو لي كأنها لا تتحرك أبداً... لا! أمي طاهرة ولا حيض فيها... أمي لم يأتِها الحيض أبداً... أبداً... أمّي عذراء!

تركت مكتبي الذي أتقاسمه مع كمال، صديقي الأبدي، حيث كنا نقضي أيامنا في البحث عن موديلات تغيّر الهندسة المعمارية الوطنيّة نهائياً. لكن زبائننا يرفضون اقتراحاتنا ولا يريدون إلا الأشكال العادية. يريدون القوالب البسيطة والطوابق الكثيرة، وتحت الطوابق الكثيرة حوانيت ودكاكين ومكاتب. استعملت المصعد. أردت شراء علبة سجائر تعودتُ اقتناءها من طفل صغير سُجِتَ من المدرسة يبيع العلب المرصوصة على طاولة صغيرة. إنّه دليل فشل الاستقلال وفشل المدرسة وفشلنا... ندمت لخروجي إلى الشارع حيث أكتشف أشياء رديئة وأوساخاً كثيرة وبطّالين لا يعرفون إلّا إزعاج الفتيات. "يتبلّاو عليها"، يقول كمال بكلمات معسولة، "الكثير من البؤس الجنسي". لذا أفضل المكوث في مكتبي وقضاء أوقاتي في العمل وتصوير دور وعمارات ومدارس رائعة وحديثة في ظنّي، أو أقضي أوقاتي الفاترة

في الحديث مع كمال حول السياسة والاقتصاد والحداثة وكوارث العالم العربي، هذا المسكين المتخلف والمتحجّر. تتراكم عليّ وعلى كمال طلبيات الأغنياء الجدد، لا ذوق لديهم ولا نوق. كنا نربح الكثير من الأموال... لماذا؟ لا تصلح لشيء، ولا تجعلنا حتى سعيدين. نتحدث عن السّعادة. فلا نقول شيئاً. البلاد غنية وسعر النفط تخطى 120 دولاراً. لكن لماذا؟ أين المنفعة. ركود... صمت... غضب. وفي آخر المطاف، يأخذنا، أنا وكمال، ضحك هستيري، دون أدنى سبب، أو لأنّ الرشوة صارت رياضة وطنية وكل فرد من المجتمع، أكان فقيراً أم غنياً، يستغل هذه الرشوة. أنا وكمال كذلك! أمّا البيروقراطية، فأصبحت قميئة وجريئة ومتغطرسة. ''روح اشتكي بي'' هو شعار المرتشين. هكذا تجرأ أحد الموظفين الصغار على سلب منزل وورشة السيد ألبرت، كنّا نعرفه ولم نجرؤ على فضحه. لماذا؟ جبناً أم لا مبالاة؟ هل غثياناً؟ هل رأفة (كنا نعلم أن هذا اللص له ابنة أو زوجة معاقة ذهنية). أقول لكمال: ''لكنه إنسان خبيث ولئيم ورجل لقيط لا يستحق أي تنازل ولا رأفة... ابنته... زوجته...''.

عدت إلى المكتب وفي فمي طعم التبغ والإهانة والغضب. قلت لنفسي: ''عليك أن تتوقف عن التدخين وأن تقوم بجهد حقيقي لإنجاح هذه المهمة''. تذكرت مراهقتي وسمنتي في تلك الفترة حيث كانت الحرب تتمدّد على كل شبر من أرض البلاد. اختنقتُ وسالت دمعتان من مُقلتيّ. صمدت، لكن فجأة تذكرت جنازة أخي ''المخفي''، أخي اللوطي، أخي ''العطاي''، أخي الغائب الذي جاؤوا بجثمانه من عاصمة ما، وصُلي عليه صلاة الغائب (الحاضر؟). كان ممنوعاً نطق اسمه في البيت. حتى أمي اشتركت في المؤامرة جبناً. قيل أنّه كان قبل مغادرة بيت العائلة مهووساً بالموسيقار الروسي Rakmaninof وب-Opus Nº 3. كانت زهرة أول من أخبرني بهذه المعلومة، نصف أختي التي كانت تراسله سراً رغم أوامر الأب والمقاطعة العائلية.

الطفولة! المراهقة! والآن هذه الكهولة! لقد نجوت من العصاب في تلك المدة عندما اكتشفت منمنمة الواسطي ولوحة السيد ألبرت المعلقتين على جدران ''صالون'' مكتب المحاسبة الذي يملكه العم إسماعيل والعم يعقوب، وكانا يملكان كذلك سواسية مهرة رائعة

اسمها انبهار، تركبها زهرة، نصف الأخت التي رباها أبي من غير أن نعلم من هي ومن أين أتى بها (هل من جزر القمر؟).

2

توفّي السيد ألبرت سنة 1947 وأنا في السادسة، فلم أعرفه ولم ألتقِ به أبداً. غير أنني كنت أشعر أنني أعرفه جيداً. "هذا من هُرائك وعُصابك يا ولد!" يقول كمال. ولعلني كنت أشعر بمعرفة هذا الشخص الذي كان يكثر من زيارة ديوان المحاسبة قبل ولادتي (كمال على حق عندما يعايرني وينعتني بالكذّاب والمجنون، لكن ربّما اخترعت هذه الخرافة لكثرة ما سمعت من كلام عن السيد ألبرت أثناء عملي في ديوان العم إسماعيل خلال العطل الصيفية؟ إنّها مسألة مخيلة مريضة وطريقتي في الهرب إلى الأمام. أنا أعيش همّ البدانة وكرهي لهذا المجتمع المنافق حتى أصبحت مضحكة الأطفال والكبار: "بابا سمينة وكال العجينة... باب خشينة وكال الطمينة!").

أين طفولتي؟ أين ذهبت طفولتي التي جعلتني مهووساً أؤكد معرفتي بالسيد ألبرت من قبل أن أولد. أين اختبأت طفولتي التي طاردني الأطفال فيها زاعقين ورائي: "بابا عجينة وكال الطمينة". كيف أقصّ عن غسق يصاحبني إلى باب الكتّاب كل فجر كما كانت تصحبني عقدة السمنة فأحاول قدر استطاعتي الإضراب عن الطعام وأفشل إثر كلّ محاولة فشلاً ذريعاً وتزداد الحَشْوَرَةُ التي كنت مصاباً بها قوّة، إلى أن تحوّلت حياتي، آنذاك، رمضانَ متعاقباً لا يعرف شعبانه أبداً! دخلت الجامع السفلي عند الضّحى. كان الضوء منحدراً وجلبابي يحِزُّ فخذيّ السمينتين المترهلتين. لمحت المؤدب الضرير وهو يختار لي قصباً ومداداً ويقول: "اكتب" ولم أكتب. قلت أمي طاهرة وعفيفة. قال: "اكتب ويسألونك عن المحيض قل هو أذى". رفضت. قال: "اكتب وإلا فلقناك". قلت: "اضرب!" فضرب وأدمى القدمين. مشيت على جرحي، وبعد سنوات قرأت وأنا كهل قصيدة محمود درويش: "علّمتني ضربة الجلاد أن أمشي... على جرحي...". راكضاً إليها، أمي... هربت من الكتّاب، و...

كانت لوحة السيد ألبرت تمثل الجامع الكبير الذي يتوسط ساحة الحاكم العام وصنم الجنرال بيجو، أو الجنرال دامريمون، راكباً فرساً صغيرة. كنت أكره هذا الجنرال لأنه عُرف بشراسته وخداعه للأمير عبد القادر ولم يحترم "معاهدة الطفنة" فخسر الأمير وانتهت القضية. وفي أحد الأيّام، كان السيد تمسيت (يعقوب) وهو يستعد للخروج من المكتب قد طلب مني مرافقته للتجوال في الشوارع والساحات والأزقة الضيقة التي تزخر بها المدينة المبنية على سفح جبل عالٍ يشرف على البحر وعلى الشواطئ والموانئ. بدأ عمي يعقوب الحديث بسرعة عن شخصية السيد ألبرت، فعلمت أنه كان قبيح الوجه قصير القامة، أحول العين اليسرى حَفِن الرّجل اليمنى، لكنه كان يملك نظرة تحمل كل طيبة الكون، وذكاء مفرطاً وحدساً رهيباً. كما كان ذا شنب أبيض كثيف، يعتمر قبعة سوداء لا ينزعها أبداً عن رأسه الصلعاء.

رويداً رويداً صرت أشخّص شخصية السيد ألبرت عن كثب بطريقة شديدة الغرابة. حتى بتّ أحياناً أشعر أنني تعرفت إليه أثناء حياته، رغم أنّه مات حين كنت رضيعاً؟ تحوّلت إلى مهووس بشخصيّة الرجل فتسلّل إلى حياتي وصار مثل شبح أو فزّاعة يغذّي عُصابي وبدانتي، وكذلك يغذي عُقدي الكثيرة. هذا ما كنت أعيشه في العاصمة أثناء الصيف.

أما في الفصول الأخرى، فكنت أعيش في قسنطينة، وهي تعلو زهاء 1900 متر. كانت مدينة باردة لا تنقطع الثلوج عنها طوال الشتاء. لكن ما كان يبهرني فيها ويرعبني جسورها الرائعة! وكما تعودت التجوال في العاصمة، كنت كذلك كثير التجوال في قسنطينة بصحبة كمال، الصديق الذي عرفته حين كنت طفلاً وتلميذاً في دار الحضانة التي كانت تسيّرها "البابصات"، أي الأخوات البيض (Sœurs blanches)، وأثناء "تحواسنا" في شوارع هذه المدينة كنت لا أنقطع عن الكلام مع كمال الصامت الذي لا يتكلم كثيراً. يريد العودة إلى بيته لكنني لا أتركه، وأزيد في الكلام بلة كي لا يتركني وحدي أجرجر خطواتي نحو منزل العائلة الذي يزعجني ضجيجه وتصرفات العمّة فاطمة، المديرة والمدبرة والحاكمة، خاصة أن أمي لا تخرج من ورشة الخياطة بل تقضي نهارها منكبّة على آلات تحمل أسماء غريبة:

Siemens، Borletti، Singer... إلخ. متجاهلة الضوضاء والزياط، تاركة الأطفال يفعلون ما يشاؤون.

إنّهم عشرون فرداً تقريباً، غالبيتهم من الأيتام، يجمعهم أبي من كل بقاع العالم مثلما يجمع الناس اللوحات الزيتية أو طوابع البريد. فهمت عند المراهقة أن أمي كانت تخاف العمّة فاطمة وتتهرب من الأطفال وعراكهم وغوغائهم.

كانت لالّا خديجة، زوجة العم إسماعيل، تلعب دور الأم الثانية بالنسبة إليّ، كونها أنجبت بنتين فقط ولم تنجب ذكراً. كانت لالّا خديجة رائعة الجمال وطباخة من الطراز الرفيع. وكلما نظرت إليها، فهمت أنها من مدينة بجاية المبسوطة على الساحل الشرقي للبلاد، المدينة المعروفة بجمالها الأخّاذ وجبالها الشامخة التي تكاد تطفو على سطح البحر. هناك تعوّد السيد ألبرت وزوجته الإقامة مع عائلة لالّا خديجة، فرسم كل مساجدها العتيقة وموانئها ودورها التركية الهندسة. كذلك، فهمت العشق الذي يكنّه العم إسماعيل لزوجته وقد كانت آية من الجمال وتمتلك أنوثة شبقية نادرة.

حين بلغت سنّ المراهقة، وبعد وفاة السيد ألبرت، عرفت أنّه كان من أكبر الرسامين عالمياً. وفهمت أن اللوحة الكبيرة المعلقة على إحدى جدران مكتب المحاسبة كانت من إنتاجه وإبداعه. طلبت من العم يعقوب سر هذا الصمت فقال: "السيد ألبرت كان حشوماً ومتواضعاً... أنت لا تفهم هذا التصرف لأنك ما زلت صغيراً". أجبته: "لا لا، أنا أحب الرسم وأتذوقه، أنا من أحسن تلاميذ الصف في هذا المنوال". قلت بكلّ ما أوتيت من تكبّر وغطرسة المراهقة. لم أكن أكذب. كان كلامي نزيهاً فأستاذ الرسم، السيد عنابي، كان يشجعني ويعتني بي مثلما يعتني بملابسه وهندامه إلى حدّ طغيان الأنوثة على شخصيته، ما أسهم في رواج شائعة أنّه كان لوطياً. فهمت أنّ تلك الاتهامات لم تكن غير شائعات يتناقلها المتخلّفون. هو متّهم مثلما كان أخي متّهماً. تساءلت هل أخي "الغائب" لوطي حقاً؟ ساورتني الشكوك في أنّ أبي من روّج لتلك الشائعة نكالاً. لكن السيد العنابي كان يشجعنا على زيارة المتحف الوحيد في البلاد، وهو متحف الفنون الجميلة الموجود في العاصمة: "اذهبوا إلى الجزائر وزوروا هذا المتحف. ستشاهدون البحر، أنتم الذين لم تروه من قبل. لا بحر في

قسنطينة". وأمام غياب حماسة التلاميذ للأمر كان ينعتنا بـ"زوافرية" (قليلي الأدب) سينما Appolo، وهي صالة موجودة في الأحياء الشعبية، قبيحة المنظر، وسخة الإطار، لا يقصدها إلا "الزوافرية" (كلمة من أصل فرنسي Zouvriers ومعناها العمال). عندما كان الأستاذ العنابي يصرخ فينا كان يزداد خنثوية ويبرز جماله الأخّاذ. كنت أحبه خاصة أن بعض الشائعات قالت إنّه كان عشيق أخي الأكبر قبل مغادرته إلى لندن لدراسة الطب.

كانت قاعة Appolo تقع في مدخل قصبة قسنطينة، بشارع كراماليس، وهو شارع طويل وضيّق تتخلله أقواس يقال أنها من أصل روماني أو يوناني أو بيزنطي. كان هذا أكبر مكان تجاري، وغالبية أصحاب حوانيته من اليهود أو من بني مزاب المتشيّعين. وكان الشارع يزخر بدكاكين الكتان والزرابي والعطور العتيقة و"السياغة" التقليدية والبخور وحتى التوابل الآتية من الهند والسند. أزقة القصبة ضيقة جدّاً وتتصاعد عبر سلالم حديدية جميلة واصلة إلى حيّ القلعة، وهي من أصل عثماني، وقد بُنيت في القرن السادس عشر. كانت قصبة قسنطينة مبنية على غرار قصبة الجزائر الأوسع والأجمل بسبب إحاطة البحر لها وإمكانية رؤيته من كلّ أزقتها. إنها متاهة ملتوية حول نفسها دون نهاية. نقتحمها عند خروجنا من المدرسة فنشتري ونأكل رؤوس الخرفان المشوية فوق الجمر التقليدي الذي لا يفقد أوجه ولا احمراره أبداً. ثم نقصد سينما Appolo حيث نشاهد أفلاماً بوليسية رديئة وأفلاماً مصرية أكثر رداءة، وأفلاماً أميركية تزرع فينا الخوف والكراهية (لكونها تنقل صورة سلبية عن الهنود الحمر، فنصفّق لهم ونشتم "الشريف" والرجل الأبيض والأميركي واليانكي لمعرفتنا أن البيض جزّروا الهنود الحمر على آخرهم)، وأفلام الرعب، وأفلاماً هندية حمقاء!

ديوان المحاسبة مُغلق في هذه الآونة. سقط الليل مدراراً. أشعر بالعزلة وأنا منهمك في سرد وتصفيف الأرقام. لقد ذهب الجميع وبقيت وحدي أمام هذه الدفاتر الضخمة. تعبر ذهني، بين فينة وأخرى، همهمسات أصحاب الكتب، كأنّهم يرغبون في حمايتي من معرفة حقائق بعض الأمور. تنتابني الأسئلة: لماذا سُجن العم إسماعيل والعم يعقوب سنتين (1940-1942)؟ لماذا تنطق كلمة "لودي" بكثرة بينهم وأنا لا أعرف لها معنى؟ شرارات موجعة تحرق رأسي رغم لزوجة الصمت المهيمن على المكان. السمنة تثقّل جسدي وتزيد عقدتي

وأحاول عبثاً إخفاءها بملابس فضفاضة. أفكاري السوداء تمزّقني من جديد. ذاكرتي موجعة وموت أخي الأكبر يزيد في الهول هولاً. لا مناص! كل هذا الصمت حول فضائي غريب. اللواط. ما معنى هذه الكلمة؟ ما معناها الدقيق؟ قيل أن أخي يمارس هذه العادة، ثمّ قيل أن سي العنابي، أستاذ الرسم، كذلك. هل اللواط مرض عضال؟ أستاذ اللاتينية أيضاً قيل عنه لوطي. أكاذيب؟ شائعات؟ هل يكون انخراطهم جميعاً في الحزب الشيوعيّ هو المفتاح لفهم هذا السرّ الذي يزيدني قهراً؟

أتذكر أيضاً قضية المسكينة أمّي (المحيض قل هو أذى...) التي اتهمها زوجها بالزنى؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ قالت نصف أختي زهرة: ”إن الأب يتهم أمّنا بأنّ لها عشيقاً“. لم أفهم كلمة ”العشيق“. قلت: ”لكن هو كذلك له عشيقات كثيرات يزرنه مراراً وتكراراً في مكتبه“. جاء هذا كرد فعل عفوي وبريء حين شعرت بغموض يتلبسني جرّاء غموض العائلة. كلمات كثيرة يتبادلها الكبار، خيانات، شائعات، غيرة مرضيّة، وفي النهاية، تضحك زهرة وتقول: ”ستفهم يوماً!“ كذلك كانت غامضة قضية الأطفال الأيتام الذين يأتي بهم أبي من كل أصقاع العالم، هو الرجل المسفار والثري والثوري (سياسياً فقط!) ويربيهم بيننا دون تعليق أو إشارة أو استفسار. لذلك كلّه، كان العم إسماعيل أحب الناس إليّ. أحببت قامته الطويلة ونحافة جسمه و”الشورت“ الذي يرتديه صيفاً شتاء، وقمصانه الزاهية الألوان. كان العم إسماعيل مناهضاً للأعراف والعادات البالية والنّفاق الإجتماعي. لم يرتدِ يوماً طقماً رسمياً، ولم يستعمل أبداً ربطة العنق. كان متحرراً من العادات القديمة، مدافعاً عن الأفكار الشيوعيّة الفوضوية، وكثيراً ما سمعته يردّد: ”يحيا سطالين!“ مشاكسةً للمجتمع الخبيث الكذاب واستفزازاً لأخيه الأكبر الذي لم يحب سلوكه الإجتماعي والأخلاقي، ولا هوسه الجنسي والمالي. الحشورة جعلتني أقضي أوقاتي كلها في الأكل. كنت أسرق المأكولات من الحوانيت، وأسرق الحلوى من الأسواق، وأسرق كذلك ما أجده في برّاد البيت ليلاً؟ تعاتبني زهرة، فأبكي. وفي الوقت نفسه، كنت أطالع رواية وليام فوكنر، **الصخب والعنف**، أتقمص شخصية بنجي الأحمق رغم أنه كان حساساً كبيراً ورجلاً رهيفاً دقيق الحدس. كنت أريد أن يكون والد بنجي أبي، لأنه كان سكّيراً مدمناً الويسكي، بخلاف أبي الذي كان لا يشرب إلا

الشاي المحلّى والمنعنع. كنت، كذلك أحلم أن تكون كادي أخت بنجي هي أختي وأن يكون كونتين أخي، لأنه مارس الجنس مع أخته واخترق المحرمات العظمى. وعوضاً عن تقمص كل تلك الشخصيات ”الفلكنارية“ كنت أضيّع الوقت في مغازلة ابنة عمي دليلة، وأشتري لها الشوكولاتة لتتركني ألمس فرجها لثانية لا أكثر! متجاهلاً أنّ لها عشيقاً هو ”الغرسون“ في ”مقهى الجزائر“ الذي يملكه أبي وسط قسنطينة والذي كان يسيّره أحد أعمامي. أستفيق أحياناً وأنا أشعر بالحمق والبله. أفكّر أن وجه دليلة قبيح، وأنّ الغباء سمة مشتركة لدى كلّ أفراد عائلتنا العاشقين لكرة القدم والأفلام البوليسيّة ومومسات ماخور Le chat noir الرفيع الطراز، الذي لا يقصده غير أغنياء القوم وأسياد الشعب.

بسبب حبي لوليام فوكنر وروايته **الصخب والعنف** أمضيت ساعات طوالاً أمام المرآة منهمكاً في تحسين لهجتي الأميركية ولغتي الإنكليزية التي أثار إتقاني لها استغراب أستاذها. كان أفراد العائلة يشعرون بالغيرة من ذلك، فيضحكون مني ساخرين، باستثناء كمال وأمي وزهرة، نصف أختي، وعمتي فاطمة، تلك الخادمة المسنة التي قررت أن أسميها اسماً آخر هو ديلسي، إحدى شخوص روايات فوكنر. كانت ديلسي امرأة بدينة جدّاً وسوداء البشرة وخادمة العائلة. فضّلتها على العمّة فاطمة التي كانت ترعبني بفمها الأدرد، والتي جعلها عرج تعاني منه تزيد في بطشها وطغيانها على العائلة. كذلك، كانت تمضغ التبغ بطريقة مقززة. أمّا ديلسي، فكانت امرأة طيبة تدافع عن الأطفال وتحب الناس كلهم. وأحياناً كنت أحلم بفرانسواز، خادمة مارسيل بروست.

بين فينة وأخرى، كان العم إسماعيل يعاتبني: ”دعنا من حديث البدانة، فترة وتمر... لا تكترث... ألا تعلم أن موسى بن نصير كان بديناً؟ لقد استعان بعساكره لركوب الحصان! ولم يمنعه ذلك من فتح الأندلس وغزو برشلونة وعربونة وكركاسونة! اذهب واقرأ كل التفاصيل في **مقدمة ابن خلدون** الرائعة. فهي سهلة الفهم وتُقرأ كرواية... يا الله!“ كل تلك التفاصيل كانت تنخر في رأسي وأنا الآن كهل أنيق أحترف الهندسة المعمارية بالشراكة مع كمال، صديقي الأبدي. المهنة التي خيّبت آمالنا. الزبائن يرفضون رسوماتنا واقتراحاتنا. نغضب لأننا حلمنا بتنوير هندسة العمارة في الجزائر، واضطررنا اليوم إلى بناء صناديق ضخمة

قبيحة لا مكان فيها للجمال. صار النوم ملجئي من المصاعب والمشكلات، وصرت أمكث في السرير ساعات طوال هرباً من الواقع، أغفو بين حين وآخر وأشرد في ذلك العالم السديميّ الغائم بلون الخزامى.

في المساحة الأخيرة من ذلك الحيّز السديميّ، أفكر في مهرة زهرة، انبهار، التي كانت، رغم صغر سنها آنذاك، تهدّ الأرض هدّاً بكسوتها الرائعة والعرق يتصبب منها، وبمناخيرها المفتوحة على وسعها وعضلاتها الدائرية على شكل زوائد ونتوءات، وأزوارها اللامعة وقوائمها النحيفة والرشيقة، تعدو بخفة في السهل شديد الانبساط. أخوض النعاس على طريقة خيول الأب ذات الأسماء الرائعة: جوبا الثاني، الكاهنة، يوغرطة، ماسينيسا، انبهار، بل بالأحرى يسقط النعاس كجلمود صخر عابراً الطبقات المطاطية للعالم خادشاً المشهد الذهني الذي لم أكتسبه بسبب اللقب الذي غيّروه للكثير من أبناء أبي، كما هي حال المدنيّة المغشوشة، المزورة ربما: سي حسان.

تلك الصور كانت تمّحي عند الاستيقاظ كأنها كتلة من حمم بركانية تندفع مثقلة بالشكّ الذي يلازمني. تتلاشى رويداً رويداً، أو ربّما يصح القول إنها كانت تنسلّ تدريجياً إلى أن أحسم أمري وأقفز ببطولة خارج سريري لأبدأ يوماً جديداً برأسٍ نفخته تلك الذكريات والألغاز التي تتحوّل فقاعات تتفجّر في الهواء الحارّ الذي يتدفق لحظة أفتح النافذة المطلة على صحن الدار. هناك كانت أمّي وزهرة تتناولان فطورهما عادةً. تجلسان قرب الحوض ذي الخزف القيشاني الأزرق والأخضر، الذي يشي بانطباع سديميّ يخلقه الماء والألوان الفوسفورية السائلة أمام الأعين مثل أحجار الكوارتز المتناهية الصغر، وحبّات مسبحة العنبر التي لا تفارق يدي أمّي أبداً، وكذلك قريصات البلق المبرغلة، أو بالأحرى المحبحبة، أو شويكات نور براقة تنجّ تحت جفنيّ اللذين يبدوان كأنما أصابتهما التراخوما، أو حلقات الدخان المنبعثة على شكل خيوط دائرية من سيجارة زهرة التي كانت تدخن رغبة في الاستفزاز أكثر من رغبتها في المتعة. كانت تفوح من صحن الدار على الدوام رائحة قماش متعفّن، حديقة مرويّة، تربة خصبة، أزهار فليفلة. والأكثر رسوخاً هي رائحة المشمش المجفّف التي لا يمكن فصلها عن زهرة وأمّي. كانتا تبدوان مثل جرتين عتيقتين هشّتين تجفّفان بخمول

الرائحة الراسخة لمربّى التوت، والمشمش المغمور بزيت الزيتون داخل جرار بربرية سلفية موضوعة بالورب، يرمّمها، أو يرقّعها، الفاخوريّ الصبور مرّة كلّ عام، مبرزاً فيها ندبات بنفسجية فوق خلفية صلصالية أمغرية أقرب إلى الورديّ الحائل، وعصير الطماطم الآخذ بالتكثّف داخل أحواض خشبية مستطيلة ومرصوفة فوق السطوح الشاسعة ذات البلاط الأحمر الخمريّ بمنظور يتكاثر إلى ما لا نهاية، وأعداد لا تحصى من حبات الكسكسي مفروشةً على الأرض فوق شراشف ناصعة تصلى بشمسٍ رابعة النهار، وكذلك رائحة القرفة المنثورة والمنشورة فوق الآجر الأخضر للدار.

في الصيف، مع القيظ، يصلنا الهواء رطباً نتناً خارجاً من المغسل الواقع خلف الحديقة بجوار شجرة التوت. رائحة مغثية لزجة ومريبة تنبعث من الصوف المبلول في المغسل، والمنقوع والمرمّث لأيام في براميل مصنوعة من خشب الزيتون. العصافير التي أعتني بها وحدي تبدو أيضاً ذاهلة وقت تلك القيلولة الرطبة. زهرة كانت تحسن تدريب المهْر، وتعلّم العصافير الغناء عند الفجر، قبل استيقاظ الخيول المعروفة بحبها للنوم. حبال نشر الغسيل متوازية ولا متناهية، نُشرت عليها بسطٌ حريرية صفراء.

قسنطينة بجسورها المعلقة وسوق الجزارين المملوء بالكتابات اللاتينية (AD OPPIDO CITRA UNIQUE ITA IUGRTHAM SPES FRUSTRATA) المنقوشة على الجدران التي تنفتح عليها بسطات الجزارين المكدسة باللحوم وبرؤوس العجول التي زينت مناخيرها بالبقدونس والكزبرة الخضراء. ثم في مكان أوطأ قليلاً "الترامواي"، وهو خردة لا عمر له. لونه أصفر، أو ربّما أزرق؟ لا أذكر؟ يمرّ بانتظام ساعة سويسرية. مكتظّ دائماً بالمتهربين من دفع الأجرة الذين لا يمكن تفاديهم واقفين على "المراقيط" المزدحمة. وهناك أيضاً دكاكين الحدادين الصغيرة جدّاً بسقطها الرهيب والصدئ. كان سوق الجزارين الأكثر ازدحاماً. بسطاتٌ معبأة باللحم تتقاطر دماً.

العاشرة مساء. يصل الليل من خلال الهالات الخافتة لمصابيح البترول المضاءة فوق بساطات بائعي الفاكهة. العاشرة مساء. بصوت متراخٍ، ينادي المؤذن المؤمنين إلى الصلاة. تتواصل جلبة العربات اليدوية التي تعجّ بها الأزقة الصغيرة للمدينة التحتية، دون اكتراث

لدعوات المؤذن المتكررة المنطوية على تهديد طفيف ضد أولئك، فيما يتابع المارّة سيرهم وسط الجلبة غير متأثرين بنداء الله الحثيث. ״الأولاد״ (كما يسمّي الأقدام السود الأطفال الجزائريين الفقراء) يبحّون أصواتهم في إعلان العناوين العريضة لصحف ما وراء البحر. بائعو الصحف: ״قتْل مئتي خارج عن القانون في قسنطينة. ملكة إنكلترا تستقبل جينا لولوبريجيدا بحفاوة بالغة... سيلفي بول تصيح: لم أقتل السيدة بيرون״. أما الآن، فأضحت حافلات ״الترامواي״ في الشوارع الكبيرة، المتحوّفة بفعل قربها من الجرف، أكثر اندفاعاً مما كانت عليه بداية النهار، كأنها أدركت بغتة الإحساس بالزمن والسرعة. جباة الحافلات يغفون على مقاعدهم ربما بسبب رائحة الأخطبوط المشوي التي تلطف الأجواء. الحادية عشرة مساء. يتوقف العمل في الأسواق. يذهب التجار نحو الطرف الآخر من المدينة. تباشير عناق... عالم يسكن فجأة. عادت الأمور إلى وضعها الأول. بداية سكينة... تحرك يكبح ببطء إلى غاية الهدهد. تنام على إيقاعه المدينة العربية التي أنهكتها المقايضة وموقعها المقبل بين الجروف السحيقة والتلال المسترسلة إلى ما لا نهاية. النظر إلى تضاؤل. عدد خيالات الأشخاص في الأزقة يعد كابوساً لي، فأهرب إلى النّوم.

إذن النوم رحمة. لكنه لم يمنع العبارات القديمة من التسلل إلى رأسي عبر طبقاته المتكدّسة: ״بابا عجينة وكّال الفرينة״، ״بوطي طوطي، زُفي״، ״وكّال المعجون والمقرون״، ״معمّر بالشحمة حتى اللحمة״... تأخذني موجات من الرعب تتخللها ارتجاجات كثيرة. كذلك بعض الرخاوة تعيدني إلى أيّام البدانة والسمنة والضور والحشورة. كل هذه الأشياء القديمة الغريبة تقتحم نومي على هيئة كوابيس. أستفيق أحياناً والعرق يتصب من كلّ مسامٍ في جسدي وأحسبه دماً متدفقاً (مجازر سطيف وقالمة وخراطة: 8 مايو 1945. عمري 5 سنوات). تظاهرة سلمية عند انهيار الجيش الألماني والنازية في اليوم الذي شارك فيه ملايين المغاربة. يوم الفرح. ثم يوم الفاجعة. مجزرة تياروا في السّنغال (17 أكتوبر 1944): 6000 أفريقي من جند الجيش الفرنسي ذُبحوا لأنّهم تظاهروا حاملين العلم السنغالي. حرب الجزائر أعرف خباياها وخلفياتها ومتاهاتها، وذلك قبل ثورة الأول من نوفمبر 1954، من دروس الوطنية التي كان أبي يلقننا إياها ذكوراً وإناثاً. تعلمنا أيضاً الكثير من العم إسماعيل والعم يعقوب

والعم أبراهام حول التعسّف الاستعماري والقمع الفرنسي والمجاعات المستشرية مع الأوبئة على مساحة الوطن كله. العم يعقوب والعم أبراهام (مدير البنك القريب من مكتب المحاسبة) كانا حريصين على أن يشرحا لنا معنى "الطبقية" و"الاستغلال" وأشياء أخرى من العلوم الاقتصادية المرتبطة بالوجود الأجنبي. لم نكن نفهم الكثير. لكن ما كان يثير استغرابي هو أن والد العم يعقوب كان الحاخام الأكبر لمسجد اليهود الموجود داخل القصبة، ولم يمنعه هذا المنصب من المشاركة في الحركة الوطنية وتنشئة أبنائه الـ15 على هذه الفطرة والمنوال. كذلك، لعب خالي دوراً أساسيّاً في تشكّل وعينا، هو الشيوعي العامل في شركة الخطوط الحديدية، العاشق لستالين والمدمن شرب النبيذ الأحمر كل يوم. "أنا أحمر ونحب الأحمر!" كان يقول وهو يقهقه. كان طويلاً وبديناً. وصار بطلي في تلك الفترة لكونه فقيراً ووطنياً وكريماً وسخيّاً بإفراط ويهجس بتحرير الأرض والإنسان. كذلك كان على صلة دائمة بالسيد ألبرت، يصطحبه كلّما حلّ في الشرق الجزائري هو وزوجته السيدة مارسيل التي تزوّجها في 26 يناير 1923، والتي كانت قبل زواجها عضواً في الحزب الشيوعي الجزائري المحظور آنذاك، وأمينة عامة لجمعية النساء الجزائريات خاصة العاملات و"الخدّامات".

بعد أسبوع من زواجه أرسل السيد ألبرت إلى هنري ماتيس: "الرّسام والصديق الكبير والعزيز هنري ماتيس، الجزائر العاصمة مدينة رائعة. مبهرة!" وفي رسالة أخرى بتاريخ 25 فبراير 1943: "إنّ بيكاسو فَهِمَ كل شيء: الإبداع والسيّاسة، فهو أكبر رسام في العالم وأنزه شيوعي كذلك! انخرط بيكاسو في الحزب الشيوعي الإسباني وهو في السادسة عشرة! هل من مزيد؟" ردّ ماتيس على هذه الرسالة: "أعرف ذلك جيّداً ومتفق معك تماماً. لقد راسلني بيكاسو في إحدى الأيام: 'لقد قلّدتك أنتَ! وسرقت كل التشكيليين وهكذا وجدت أسلوبي الخاص واكتسبتُ طريقي في تكسير القائم' إنه لعظيم!" وفي ردّه، يكتب السيد ألبرت: "إنّ زوجتي مارسيل، وهي مناضلة في الحزب منذ 1936، تريدني أن أنخرط بدوري لكنّني متردّد رغم علمي أن بيكاسو من أنصار هذا الحزب. لعلني أغار منه هو الذي اقتحم الإبداع والسيّاسة بطريقة عبقرية، لأنه ضرب عرض الحائط بكل هذا الرسم التقليديّ القديم والعجوز والجاهز... آه، لقد وجدت موديلاً رائعاً، إنها ابنة أحد أصدقائي، اسمها

زهرة، رائعة الجمال وتتقن ركوب الخيل وترويضها بسرعة فائقة... أخيراً عليك أن تزور هذا البلد الرائع يا أخي العزيز!“ وكان رد ماتيس: ”أعرف ذلك يا صديقي، لقد زرت وأقمت في هذا البلد الرائع لسنوات. إنّ شمال أفريقيا هي جنة فوق الأرض. هي الفردوس الذي يتحدث عنه المتصوفون وأنا من ملّتهم... لقد أحسنتَ عندما قررت الاقامة في هذا البلد والزواج بامرأة من أهله وهي دون شك جزائرية نزيهة. الفردوس! يا أخي. لا تنسَ! الفردوس. احتفظ بهذه الكلمة غامضة المعنى... لا تقلق سأزوركما قريباً في بلدكما!“

بعد كلّ ذلك، وكلّ تلك الدماء المسفوحة، والشحمة الملطّخة بالضيق والذعر وكراهية الذات، ما زال يؤلمني مآلي وقد غدوت كهلاً أنيقاً. وحدة خانقة. خوف صلب. ليل ممطر، داكن، حالك، غزير، رطب في آنٍ. حتى ضوء المكتب بات رطباً زلقاً مائعاً. أشعر بالغربة عن أشيائي الموجودة على الطاولة حيث أنشغل بملء الأوراق بالأرقام. حتى كمال ما عاد يسلّيني للأسف؟ علمت بعد وفاة السيد ألبرت أن زوجته علّقت لوحته (مسجد ساحة الحاكم العام) على أحد جدران مكتب المحاسب، وقد منحت للعمّين إسماعيل ويعقوب الرخصة الرسمية فصارا مالكين للوحة بطريقة قانونية. بعد ذلك رأيت لوحات صغيرة ومتوسطة الحجم تستنسخ المشهد نفسه وهي مؤرّخة ما بين 1920 و1947، إن لم يكن ذلك مجرّد إشاعة!

ضوء المصباح يكدس الظلال المغناطيسية. الليل! الليل! ثم الليل العميق والصمت أعمق. أترك دفاتر الحسابات وأبدأ قراءة (للمرة الألف؟) رواية وليام فوكنر **الصخب والعنف**. أتوقف بإمعان عند قراءة الفصل الخاص بكادي، تبهرني شخصية هذه الفتاة الثائرة (وزهرة؟) أكثر مما تبهرني شخصية بنجي وهي الشخصية المحورية. تعشق كادي أخاها كونتين الطالب في جامعة هارفرد وقد أجبرته في إحدى الليالي على ممارسة الجنس معها. ربّما كنت أستهوي ممارسة الجنس مع زهرة أختي المتبنّاة من أبي. أتردد! أرفض! أغضب! لكن زهرة تبهرني وهي تكسب شخصية كادي، هي – زهرة – الموديل المفضل للسيد ألبرت والفارسة المرموقة التي تمتطي خيل أبي (أجمل وأسرع مهرة: انبهار!). أخيراً تلاشت كل تلك الاستيهامات الجنونية وتزوجت زهرة بالسيد ألفريدو، الرجل القائم على شؤون السيد ألبرت.

لم أدرِ لماذا تزوجت به. كان قبيح الوجه، ركيك الهندام، يرسم رسوماً رديئة للغاية. هل تزوجته لأنه كان شيوعياً وطنياً ومدرباً ماهراً وبارعاً للخيول، ومقرّباً من السيد ألبرت؟ هل ستدخل كادي الماخور بعدما مارست الرذيلة مع أخيها؟ لست متيقّناً لكنني أعلم علماً لا شك فيه أنّ أخاها انتحر بعد هذه العلاقة الجنسية التي فرضتها عليه أخته العاشقة! انتحر كونتين كما انتحر أخي الطبيب لأنه كان يفضل الرجال على النساء. تقول الإشاعة: ”عطّاي! زامل! pédé“؟

ينتابني بغتة خوف لا مبرّر له. أضيء كلّ المصابيح في ديوان المحاسبة، حيث حشرت نفسي الليلة. أجلس على كرسي وضعته أمام لوحة ”مسجد الحاكم (أو الحكومة؟) العام“، في ”بلاصة العود“، كما يقول الجزائريون. حدّقت في اللوحة وقتاً طويلاً. أذهلني المسجد الجميل ذو القبة الضخمة التي تقابل مسجد كتشاوة، وهو من طراز بيزنطي أسّسه العثمانيون أيّام سطوتهم على البلاد. أجد نمط هذا المسجد قبيحاً (أم هو الجنرال دو بورمون في الحقيقة؟ تبقى هذه القضية غامضة، ذلك أن العامة تسمي هذا التمثال العود (الفرس) فقط! كأنها ترفض التلفظ باسم جنرال غاشم!). يغادرني الخوف نوعاً ما. أنظر إلى تمثال الجنرال بيجو ممتطياً خيلاً صغيراً. الصورة مضحكة نوعاً ما. ثم مسجد بشّين (Piccino)، واحد من المرتزقة الإيطاليين الذين كان العثمانيون يستخدمونهم بعد اعتناقهم الإسلام، وبعد بناء مسجد كقربان وحجة قاطعته على نزاهة استسلامهم! تُحيط بهذا الجامع الصغير حديقة تسوّرها الزهور الجميلة. ثم أغيّر مكاني وأنظر إلى منمنمة الواسطي التي رُسمت سنة 426 هجرية، في بغداد، تحت عنوان ”معركة الزقاق“.

هكذا تخلصت من الخوف الذي باغتني بطريقة غير عادية. تبهرني أضواء المصابيح الساطعة والمسلّطة على جسدي البدين. نوبة من حساسية الحشورة تصيب صدري. أحسّ بالكرب والهلع. أفكر في مهاتفة كمال، هو الآن في قسنطينة. الساعة تدق منتصف الليل. الألوان باهتة. أشعر بالغثيان. أكره نفسي. صمت مطبق. بقع ضوء المصباح تذكرني ببقع ضوء القمر وهي تخترق أغصان شجرة التوت أمام منزلي في قسنطينة. أصوات خافتة تأتي من الزقاق. أتذكر الاعتصام في غرفتي بعد قراري الإضراب عن الطعام للتخلّص من

السمنة. صمدت أشهراً رغم محاولات كمال والعم إسماعيل وأمي وأفراد العائلة ثنيي عن الأمر. رفضت! صمدتُ! دون جدوى. لم ينقص وزني غراماً واحداً. أسابيع وأنا أهذر كالمهووس بهذا المرض الخبيث.

أعود إلى المكتب والليل مخيّم على المحيط بأكمله. بقع من الضوء. بقع من اللاضوء. نفخ من الظل. أشعر كأنّني أعيش في حوض زجاجي صغير تدور فيه الأسماك الحمراء والزرقاء بعناد ودون توقف. رائحة Aqua Velva عندما حلقت ذقني لأول مرّة. أبي دائم الترحال لا يفتأ يسافر في كل أنحاء العالم "صحراء غوبية. فبراير 1925. حسان". رائحة Aqua Velva التي أهدتها إليّ السيدة مارسيل، زوجة السيد ألبرت عندما نجحت في شهادة الطور المتوسط. شعر كمال بالغيرة وطلب من إحدى عشيقاته أن تهديه مثلها. كانت جاكلين زوجة ضابط في الجيش الفرنسي سجن في معركة دين بيان فو (مايو 1945) ثم عاد إلى الجزائر بعد سنوات قضاها في السجون الفيتناميّة. قال كمال: "واش أداه يحاربهم. الشه فيه!"

تسببت عبارات الأطفال الجارحة في عصاب أصابني وما عدت قادراً على الإفلات منه، حتى بعد جلسات الاستشفاء الطويلة في إحدى عيادات العاصمة. الكلمات تتكدّس في رأسي وتثري بعضها فتتكاثر باختلافات بسيطة ذات معانٍ غامضة تسهم الذاكرة في تضخيمها وقد باتت مشوشة هائمة بين الموت والغيبوبة.

هدفي الأوحد كان التملّص من التباس هويتي المزورة والمزيفة والمقلوبة رأساً على عقب. وكذلك التخلّص من الشعور بالذنب لممارستي الفسق مع زهرة. لم يكن شعور الندم وريث تلك الممارسة، وإنّما كان ملازماً لي مذ كانت زهرة لا تزال طفلةً تنزلق في فراشي وأحدس أنّ في الأمر شيئاً مريباً. إنّها حزمة من العوامل، تفرّعت وتشابكت وتخللها الحدس لتغدو مترابطة، لكن مع إمكانية انقطاعها بغتة وخلخلتها لقوانين الذاكرة المتأهبة دوماً لرصد التفاهات التي لا تنضب، فتنطلق في صحارى شاسعة وتعمل على تأجيج العقل الباطن.

قسنطينة حينما تلمحها من النافذة تبدو في عيني زهرة كتلةً ضخمة من بياض أمغر مسترسل عبر مصاطب متتالية بين الصخور والسهل، مشطوبةً كبقعة في سجلّ المساحة تعجّ بأشكال منضّدة باكتظاظ. القصبة العتيقة تبدو هشة ومسامية ومخرّمة، موحيةً أنها تتهشم إلى

ألف شظية. تنحل. تتوارى. ثمّ تتشكل مجدداً في مكان أبعد قليلاً. تتكتل، تنتفخ، تهبط بإيقاع بطيء. فلورةٌ تنتج برقاً. أضواء بنفسجيات، خزاميات، برتقاليات، تتقاطع، وخطوط التلاشي تتمدد، تتلوّى، دون توقف. قسنطينة التي كنت أعرفها أيضاً من الأدلة المتعددة والمنشورات الأخرى التي تخص مدناً زارها أبي وكدّسها في أدراجه وجيوبه:

> وقد عُرفت هذه المدينة في البداية بالاسم القرطاجي ماريم باتيم، وحملت اسم "سيرتا" (الروماني) لمدة طويلة. كانت عاصمة لملوك نوميديا ثم أصبحت مستعمرة رومانية "*IdGitur Quarto Denise Die Haud Longe AB Appido Cirta Undique Simulspeculatores Siti Se Ostendunt. Ita Jugurtha Spes Frustrata*" (سالوست. **حروب يوغرطة**)

هدمها العصيان المسلح الذي نشب عام 311. وأعاد بناءها قسطنطين الذي أعطاها اسمه: قسنطينة. دمرها الوندال مرات، واحتلها ملوك مسلمون منذ القرن الأول للهجرة. وكانت إبّان الحملة الفرنسية في 1836 مقر بايلك مستقلاً. هاجمها دون جدوى الجنرال كلوزيل (Clauzel) عام 1836، إلى أن سقطت في 13 أكتوبر 1846 على يد الجنرال فاليه. وهي مثال يضرب في التهيئة العمرانية للمدينة ذات النمط العفوي والأزلي المثير للدهشة. إذن، قسنطينة مؤلفة من أحجية قصيصات تكوّن أحياءً تشكل نسيجاً عمرانياً شديد التجزؤ، بقدر ما تشكل مسايل عميقة لمضائق جبل ونهر الرّمال الذي تعلوه أربعة جسور عالية. الموقع هو موقع مدينة رومانية محصنة، ثم مدينة محصنة قرطاجية، ثم رومانية وأخيراً عربية. وبقيت تحتفظ بالممر بين الحاجزين الطبيعيين اللذين يؤطرانها كأنها مائلة.

قسنطينة، كما تراها عينا زهرة وعيناي، نوع من الإشاعة الملموسة والمبهمة على السواء. رخوة. مطاطية. كانت تظهر بشكل جلي وصارخ كبنية بارزة من الاكتظاظ التفصيلي والمتكدس على المستوى الأول. قسنطينة ذات الألوان الصلصاليّة بسطوحها المغطاة بالقرميد الأحمر كالحراشف الضخمة، ذات الثياب الخوخية الحمراء كالدم أو كشراب الرمان. هكذا: مدينة متوسطية رغم بعدها عن البحر. يمنحها الغسيل الذي يجفف على النوافذ شكلاً كاريكاتيرياً. إشارات زاخرة بخمسة مستويات على الأقل. شديدة الانحدار في الأول. مختصرة. مقطعة. إهليليجية. منقطة في المستوى الثاني والثالث. مائلة ومجزأة ومنحلة في المستويين الرابع والخامس. صفوف من النوافذ والشرفات والقباب والجروف السمراء

والوردية والتأريفات الزراعية الخضراء الباهتة. ثم الأمغر والأصفر والأحمر القرمزي والنرجسي والصلصالي كالرقيعات ذات الألوان المتناسبة، لكنّ الألوان تتغير بسرعة كبيرة وتتحول من السطوع العنيف إلى شيء ناعم، وفق التوقيت. قسنطينة مدينة تحتوي المنزل الذي شهد ولادتي وولادة إخواني من أمي فقط! أما زهرة...

كان البيت برمته يعبق بعطر لطيف ونفّاذ في آن: قماش متعفن أو جديد جدّاً كانت زهرة وأمي ترتبانه بصرامة. مشمش مجفف يستعمل كتوابل في طهي الأطباق العائلية. زيوت متنوعة (زيت الزيتون المعبأ في جرار بربرية متقشرة، زيت التشحيم للآلات مملوء في أوانٍ إسطوانية كبيرة مصفحة ومطلية بالكروم ولمّاعة. زيت لمعالجة التهاب الرئة لدى الأطفال، زيوت أخرى منزلية تقليديّة أو ...).

إذن، البيت القسنطيني الذي يطلق رائحته متمثلة في الأقمشة التي تجمعها أمي بشغف كبير، بخاصّة الكريب الصيني الذي كانت تكنّ له وَلَهاً حقيقياً. رائحة حرّيفة. كأنّ هذه التقاليد، المطبخية والملبسية، القديمة رسخت في الدار لتغذية الحنين الذي ترعاه زهرة كذلك.

كانت زهرة، خلال الصيف، تمضي وقتها في صنع باقات رائعة من أزهار صفراء، وتتخفى بزي رجل، لتهيم في مقاطعات الاستجمام في المدن الشاطئيّة (بجاية وسكيكدة وعنابة)... بحثاً عن مغامرات عاطفية وسحاقية، واستقبال إحدى صديقاتها في غرفتها التي توصد بابها بدورتين في القفل في ساعات القيلولة الساخنة. غالباً ما باغتُّ المرأتين وهما تمارسان الحب. المرة الأولى كانت مصادفة. بعدها تعمّدتُ التلصص عليهما عبر ثقب ثقبته في باب الغرفة. كانت الاثنتان عاريتين ومأخوذتين في تلاحم جسدِي صاخب وعنيف. زهرة ذات الجسد الممشوق المغزلي بنهدين رائعين مستديرين وركينين بحلمتين ليلكيتين، بينما صديقتها، الأقرب إلى الاكتناز والقصر، تملك نهدي فتاة صغيرة. زهرة، وهي نصف أختي المجنونة والعنيفة بفرجها (ثقبة! مجرد ثقبة تتكدّس فيها المتعة... ثقبة، تقول، بل تصيح في زهرة) الذي ينكشف من حين إلى آخر على مهب الحركات. فرج حليق كأنه مقشر. أخرق بالثلم الأحمر. شجة طويلة تندبه من الطرف إلى الطرف. ندي. أحمر. مثل فروج فتيات الدار عندما يبلن مقرفصات في الحديقة بجانب إحدى شجرة التوت الكثيفة. فرج زهرة أمرط

صقيل. أمّا اللّسين! فشبه مصرف، مصطنع إلى حد ما، كأنه زائدة، ذو لون سخيم، يعطي إحساساً بفجوة لا توصف، كذلك البرض. البزيم. زفرات. تأوهات. صرخات مكتومة كالحشرجات. تكشف صديقة زهرة، الكتومة والمتزوّجة، عن عانة كثّة، ذات شعر طويل، ناعم أسود، يغطي أسفل بطنها كاملاً، ويعطي انطباعاً بكتلة من طفح ملبسة بين الفخذين العجيبين، شديدي البياض والقصر، ومفتولي العضلات. لم تكن زهرة مجنونة بالفعل، بل غريبة الأطوار وصاحبة شطط متداوم (قبل أن تتزوّج بألفريدو. وقد أدهشني قرارها لمعرفتي أنها تحب النساء وتفضلهن على ...). عانس رائعة فقط! وهي لا تكاد في العشرين رغم جمالها وقوة شخصيتها والدور الراجح الذي تلعبه في العائلة، وبالأخص تأثيرها في الأب الذي كان يخشاها ولا يرغب في توضيح صلة القرابة بينها وبين باقي أفراد الأسرة. كان يلزم الصمت طواعية.

هو أبي ذلك الرجل المسفار الذي لم يكف عن شراء ماكينات الخياطة لأمّي بعد توقفه عن ممارسة الجنس معها، كأنه يريد بذلك أن يشغلها عن الأمر. كانت في الثلاثين. تزوجها، وفق العادات والتقاليد وهي لم تبلغ بعد ثلاثة عشر عاماً. هي المرأة الرائعة والجميلة والشقراء بقامة متر و80 سنتيمتراً. كثيفة الشعر، خضراء العينين، رشيقة الجسد. تغفر له كل خياناته وتحب فيه ذلك الرجل المهووس بالعلوم والفقه والسياسة وتربية الخيل النبيل وتربية اليتامى ومحبّة الفقراء. فهو على سبيل المثال كان مهووساً بثورة الزنج (يسميهم المؤرخون العبيد) ضد الإمبراطورية الإسلامية في القرن الثالث من الهجرة، وكان من بين من يشجعهم الرسام الواسطي الذي كان يقدم إليهم الأموال الكثيرة. أثناء العصر الذهبي الذي فتحه هارون الرشيد كثر تشييد المساجد الكبرى والقصور الرائعة والحدائق الفردوسيّة والأعمال، الكبرى منها، وعلى وجه الخصوص وصْل نهر الفرات بدجلة. لذلك الهدف جيء بثلاثمئة ألف عبد زنجي من نوبيا وزنجبار ودومباسا، فحفروا الأغواط وبنوا السدود وروّضوا الأنهار. كما نقّوا المستنقعات وتحكّموا في الفيضانات الكارثية. كان ذلك أثناء عصر ابن شاكر الذي اخترع علم المياه، وعصر محمد الطوسي الذي اخترع التحليل التوافقي. هكذا، أضحت منطقة ما بين النهرين منطقة فلاحيّة غنيّة جدّاً. عندئذ ثار الزنج، وعلى رأسهم رجل أبيض البشرة،

وهو مهندس مياه من أهم التقنيين، اسمه علي بن محمد. هو الذي نظم هذا الحشد من العبيد المعذبين وجعل منهم جيشاً ضخماً ومنظماً وخطيراً سنة 255، فاكتسحت هذه الثورة مدن البصرة والكوفة والموصل، وأسس رئيسهم جمهورية الزنج لتتمدد من البصرة والموصل إلى دمشق وحلب، وتدوم هيمنتها نصف قرن.

أمي إذن! هكذا، مقيَدة بمكناتها الرهيبة والملعونة إلى الأبد. حيلة من حيل أبي لإشغالها ليلاً ونهاراً، لشراء قبولها وطاعتها، بل حتى لاستلاب تبريكها وبركتها ورضاها شبه الديني. أراد أبي، بإشغالها عن طريق المكنات، أكثر من ذلك. لقد أراد نيل محبتها وقلبها ووعيها، فتحسب أن زوجها، ذلك الخائن الأبدي، يحبها حقيقة! والدليل هذه الهدايا الميكانيكية الحاملة

أسماء غريبة: BORLLETTI، SINGER، SIEMENS، والآتية من بلدان غريبة وراء البحر الأبيض المتوسط. لم يكفَّ أبي عن تقديم هذه الهدايا حتى غصّت بها غرفة الخياطة، مثلما كان يفعل حين يستجلب يتيماً أو يتيمة ويقدمهم كهدية ربانيّة فتنعم هي برضى الله حين تربيهم وتجعل منهم ومنهنّ رجالاً أبطالاً ونساء جميلات وعظيمات ومثقفات. ولعل أبي قام بكلّ تلك الحيل المدروسة والجهنمية ليبعد عنه الشعور بالذنب عن اتهامه لها، باطلاً، بالخيانة الزوجية، تلك "المرأة الملاك التي لا تعرف حتى أين يقع فرجها!" تقول وتكرر زهرة هذا الكلام خاصة أنّ هذه التهمة قد دوّختها وأرهقتها وأدخلتها في كآبة وكرب لا نهاية لهما. ولعلّها تُوفّيت سنة 1964 (أو 1962)، أي سنتين بعد استقلال البلاد، جرّاء هذا الغبن وهذه الغبينة اللذين تأصلا فيها بعد تهمة الخيانة الزوجية التي نزلت عليها كالصاعقة، ولعلها كذلك توفيت قبل أوانها، بعد انتحار الابن... اللّـ...

كانت أمي في الحقيقة طاهرة، عفوية، طيبة، عفيفة، ساذجة، صافية. ولم تكن على معرفة بكلّ تلك الأمور، كما كانت تفتقد ملكة الخيال. لكنّها كانت دوماً عابقة بذلك المزيج من العطور وشحوم الماكينات وعفونة الأنسجة القديمة ورائحة الأنسجة الجديدة وفوائح معجون المشمش المربى في الخابيات القديمة ودعيرة التوت الذي يتعفن على الأشجار وعلى أرضية الحديقة لأن لا أحد يقطفه أو يهتم به، وذلك بسبب كثرته التي تغمر كل المحيط حوله، فكانت تريح كل هذه الروائح والفوائح التي تغمرني كلّما تذكرت أمي. لكن وحدها رائحة الكريب

الصيني كانت ولا تزال تُجسد أمي كلّما تذكرتها أو حلمت بها أو تكبسّت بها. رائحة الكريب الصيني تأتيني كأنّها حرشاء وكيميائية ومحبجبة. فتعطيني كل هذه المعطيات وروافدها: الشعور (الشعور الصلب) بأنّ أمي نفسها هي ذلك الشيء القديم والمعبّر والمعطّر الذي يطفو على المنزل منذ وفاتها إلى يومنا. وقد زار السيد ألبرت منزلنا، كما صرح العم إسماعيل، وكان ذلك سنة 1940 أي قبل ميلادي بعام واحد!

كذلك، رسم السيد ألبرت بجاية، تلك المدينة الخلابة كأنها تنبثق من البحر نفسه وتبرز من الجبال الشامخة المحيطة بها، خاصة أن تاريخ هذه المدينة تكديس حضارات مختلفة طبقات طبقات، وهي مكوّنة من القوط والفزيقوط والأمازيغ والعرب والعثمانيين والفرنسيين. كانت بجاية التي رسمها الفنان قبلة المصطافين التي يقصدها الأوروبيّون الأثرياء والجزائريون من طبقتهم. وهي مسقط رأس لالا خديجة، زوجة العم إسماعيل وأمي "بالتربية"، التي ترعرعت في بيتها أثناء عطلاتي الصيفية التي قضيتها في الجزائر العاصمة.

3

كان العم مجيد، النجّار الذي يصنع إطارات لوحات السيد ألبرت، رجلاً طيباً ورزيناً يقضي حياته في ورشته الموجودة في قلب القصبة العتيقة، قصبة العاصمة المختلفة كثيراً عن قصبة قسنطينة مسقط رأسي، حيث تحتضن أحسن الشوّايين لرؤوس الخرفان، وميزات أخرى كثيرة. كانت ورشة العم مجيد في أعلى سلم هذا الحي الشعبي، ولا يمكن بلوغها إلا على ظهور أحمرة ذات قامات صغيرة لكنّها تملك قوة وطاعة كبيرة. تصعد السلالم بسرعة البرق وبذكاء شديد لأنها تعرف تلك الأزقة الضيقة معرفة جيّدة وحدسية. كذلك تعرف المنازل التي تتّجه إليها. إذن، القصبة، تلك الأزقة الصغيرة المحفوفة يميناً وشمالاً بأبواب المنازل الصغيرة، وهي الأخرى مزخرفة ومحاطة بحدائق صغيرة مملوءة زهوراً وأنواراً تنسدل على جدرانها ياسميناً ومسك الليل ووردا وسلسبيلاً... إلخ. كانت النوافذ في هذه الدويرات مصنوعة من خشب مزركش بطريقة جميلة (المشربيات)، ويعلو مداخلها بطريقة جميلة "زلّيج" مزخرف بألوان لطيفة. ووراء المشربيات تختفي النساء اللاتي يرين ما يجري في الخارج من غير أن يستفيق لهن أحد. فأشعر، وأنا في طريقي إلى ورشة النجارة، بعيون ثاقبة تتجسّس عليّ وتغويني دون أن أفعل شيئاً ضد هذه "الجوسسة" المخيفة. عند وصولي إلى ورشة العم مجيد تصدمني رائحة الأخشاب المختلفة، الآتية من أصقاع العالم، وذات الأصول النبيلة: الإبتوس والأدوب والسال وغيرها من الأنواع الفخمة. كل هذه الأسماء الجميلة تجعلني أتذكر أسماء المناطق التي تنتج فيها مثل هذه النوعيات: جافا وسومطرة وبنديشري والهند والسند، وكلها أسماء جميلة وغريبة تعيد إلى ذاكرتي البطاقات البريدية التي كان يرسلها أبي وهو يجوب وينوط العالم بأسره،

فتحمل إلى المنزل روائح ومناظر وأحلاماً تبقى سجينة وعينا، نحن الأطفال (على وجه الخصوص).

البندقية

12/12/1932

حسّان

أما الآن، وقد أصبحت كهلاً وفهمت كل هذه المعضلة حول سلب ممتلكات السيد ألبرت، أتذكر أن العم إسماعيل وأصدقاءه كانوا يرسلونني إلى ورشة العم مجيد لنقل أخبارهم، فهو لم يكن يملك هاتفاً لأسباب نفسية (كان الرجل كثير التطيّر ومهووساً بالماورائيات) وسياسية وجمالية في الوقت نفسه، إنّه لا يطيق رنّات الهاتف ودخول هذه الفزاعة إلى ورشته، فيضحك منه أصدقاؤه. من بين زبائنه، كان رسام رديء يحمل اسم دينيه يعيش في الصحراء ويرسم بطريقة فلكلورية (المومسات العاريات مثلاً) ويراها العم مجيد نوعاً من التلوث الغبي، خاصة أن هذا الرسام الفرنسي قد اعتنق الإسلام نفاقاً ليجتلب احترام سكان المنطقة، وهم من الفقراء الطيبين السذج الذين لا يفقهون شيئاً في هذه الأمور وليس لديهم إلا نزاهتهم وثقتهم في الناس. فأصبح السيد دينيه ولياً طاهراً وهو الشخص العربيد والوقح. وبعد الاستقلال ألّه بعضُ المسؤولين السيّاسيين هذا الشخص لأنه استسلم ودخل الإسلام: "لإغراء الناس فقط! لا تنسَ أنه كان ضابطاً كبيراً في المخابرات الفرنسية يا رجل! وكذلك إيزابيل إيبرهارت التي أُلّهت أيضاً"، يقول كمال. "ولم تعتنق هي الأخرى الإسلام حقيقة، إذ كانت تموج وتغوص في العربدة والقصوف والقصف والزنا و... حقيقة، يا ولد! كانت امرأة مسكينة وتائهة تبحث عن أوهام وهوس منذ صغرها. استعملها الاستعمار وجعل منها متصوّفة! هل تعرف ذلك يا صبي؟ متصوّفة وعلّامة في الفقه واللاهوت... مسكين شعبنا... لكنه معقّد

كذلك... ومتعصب لأنه يفرح عندما يعتنق مسيحي الإسلام ويغضب عندما يعتنق المسلم ديانة أخرى، وتقوم القيامة وتملأ المساجد تبركاً بهذا الدخيل الجديد... لأن الناس عندنا مصممون على أن الإسلام يتفوق على الديانات الأخرى رغم أنها كلها سواسية!"، يقول لي العم مجيد كذلك هذا الكلام، خاصة أن دينيه كان لا يرسم إلا المومسات والراقصات ولم يعتنِ أبداً بالفقراء والمستضعفين الذين كانوا يملؤون الصحراء آنذاك، والاستعمار يسيطر على الوطن بأكمله ولا يرحم ولا يشفق، وقد عاش هؤلاء الجواسيس في بوسعادة وهي مدينة واحة جميلة تشقها شُعبٌ شامخة كتلك التي كنا نشاهدها في أفلام الوسترن، داخل قاعة Appolo. يشاع عن السيد ألبرت أنه كان يكره هؤلاء الرسامين المستشرقين ويكرر: "لقد رأيت ماذا فعل أوجين ديلاكروا بنساء الجزائر بعد أن حشرهن في شقتهن. كما رأيت ماذا قدم إليهن بيكاسو عندما أعاد رسم لوحة ديلاكروا أثناء بدايات حرب الجزائر (فبراير 1955) وصرح آنذاك: جعل ديلاكروا منهن قحاباً ومومسات وجعلتُ منهن محاربات ومقاتلات. كان هذا الرسام الموهوب والكبير كذلك ضابطاً كبيراً في الجيش الفرنسي وجاسوساً قديراً ساعد برسوماته استعمار المغرب الأقصى من طرف الجيش الفرنسي". "أكره هؤلاء الناس"، يقول السيد ألبرت، "كلهم من الشياطين الذين حوّلوا الجزائر إلى ماخور ضخم. صحيح أن ديلاكروا كان رساماً نابغة لكنه كان كذلك عسكرياً رهيباً! زد على ذلك أندريه جيد الذي كان يقضي فصل الشتاء في مدينة بسكرة فقط لاغتصاب الأطفال الفقراء الذين كانوا يئنون تحت سوط المجاعة والأمراض المتنقلة والدائمة، إذ كان مهووساً بممارسة الجنس مع الأطفال الصغار بناتاً وذكوراً". (العم مجيد) رائحة النشارة تجتاح مَنخري. فضاء مملوء بالخشب النبيل حيث يقضي النجار الماهر أوقاته بين عشرات اللوحات

وهو ينجر ويلوّن تلك المادة الخام فيجعل من الخشب علباً جوهرية لروائع السيد ألبرت. "هي أكثر جزأرة من أي جزائرية"، يردد العم مجيد هذه الجملة مرات وهو يعني السيدة مارسيل، زوجة السيد ألبرت. بعد مدة وجيزة من وصوله إلى الجزائر سارع السيد ألبرت إلى رسم مسجد صغير من الطراز البربري (الأمازيغي) كأنه زرع في قلب القصبة زرعاً. وقد اضطر الرسام إلى كراء منزل يطل على المسجد وهو شبه منمنمة لطيفة حتى يتمكن من أداء مهمته بطريقة دقيقة، خاصة أن جدار الجامع كانت تفصله قرابة 75 سنتيمتراً عن النافذة، لأن الهندسة العامة لهذا الحي كانت ترتكز على أزقة ضيقة ومتاهات رائعة. عنون السيد ألبرت اللوحة التي أنجزها بالمسجد/ القصبة واسمه الحقيقي "جامع القصبة القديمة" أو "مسجد سيدي عبد الله"، وقد أنشأه سنة 400 هجرية سيدي علي عزوز، المهندس المعماري الذي كان في خدمة يوسف بن تاشفين، الأمير المرابطي. فجاء هذا المسجد مربع الصومعة، وهذا نادر جدّاً في الهندسة المعمارية المغاربية وهي أمازيغية/ عربية الأسلوب، فيعطي هذا المزاج طابعاً رائعاً للتحف التي أنجزت في تلك الفترة التي كانت تحت سلطان المرابطين. كذلك، كان الغِماء الذي يسقف هذا الجامع الأسطواني مكوّناً من القرميد الأحمر (عوض الأخضر)، خاصة أن الصّحن كان يحتوي وسطه على بئر مغطاة بالخزفيات الرائعة الألوان التي أبهرت السيد ألبرت بأناقتها وكيفية تصفيف الألوان المختلفة التي كانت تزين هذا البئر. أما عن السطح، "فلا تحدث! روعة الروائع الرائعة"، كما كان يقول العم مجيد، خاصة أن هذه التحفة كانت مشرفة على البحر بانفراج زاويته إلى 180 درجة. "أما قصبة الجزائر، فلا يمكنك أن تصدق!" يقول كذلك السيد ألبرت لصديقه ماتيس في مراسلة بتاريخ 12/12/1932. وأخبرني العم إسماعيل أن حي القصبة هذا بناه بولوغين الزيري سنة

360 على أنقاض المدينة الفنداليّة/ الرومانية الأصل *Leosium*. إذن، كان العم مجيد أيضاً يكره هؤلاء المستشرقين، ويرفض كل علاقة معهم، "لأنهم لا يحبون هذا الوطن العزيز ويستعملونه كديكور فقط! ديكورات فقط، وكذلك كماخور ضخم حيث يعبثون بالصبايا والصبيان. الفقر سيد ألبرت! الفقر!" العم مجيد فسّر قصة تعرّفه إلى العم إسماعيل والعم أبراهام والعم يعقوب، وكان ذلك في بداية الأربعينيات وحكم فيشي، وقد نفاهم آنذاك الحاكم العام وحشرهم في معسكر لودي بمساندة "الأقدام السود" العنصريين والمضادين للسامية، وكان آنذاك مول، رئيس بلدية مدينة وهران يرأس هذه العصابة.

لا تنسَ ولا تخطئ: هؤلاء العنصريون وهم من الفقراء الذين فرّوا من بلادهم وجاؤوا إلى الجزائر بحثاً عن القوت اليومي، لكنهم سرعان ما تحوّلوا إلى رجعيين! جاؤوا من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا ومالطا ومن بلدان أخرى. أما الغالبية، فجاءت في عربات الجيش الفرنسي عندما غزا الجزائر (1830). وكان هذا القوم اللئيم، وهؤلاء الأقزام الشرسون، يكرهون العنصر الوطني وأصحاب البلاد كرهاً شديداً، فتحولوا بسرعة البرق إلى جلّادين لا يرحمون ولا يشفقون، ناسين تاريخهم القديم حين كانوا يئنون تحت سطوة الأغنياء ويحرثون أرضاً بوراً.

لم ينقطع السيد ألبرت عن زيارة مكتب المحاسبة للقاء العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام، وهو محاسب في بنك صغير يقع جوار مكتب المحاسبة، وذلك حتى عندما كان المرض يفتك به. كما كان يرسم كل ما هو جزائري من مناظر خلابة وهندسات رائعة (تحديداً المساجد التي كانت تبهره خاصة، هو العاشق لهذا الفن الإسلامي عشقاً لا حدود له!). لقد قصّ عليّ أصدقائي الكهول كل جزئيات وتفاصيل حياة السيد ألبرت حتى بتّ أظنّ يقيناً أننّي التقيته وكنت على صلة متينة به. وهو ما لم يحدث أبداً، ما يثير سخرية كمال، فيقول: "إنك لمجرد خرافي، يا رفيقي!"

الأصفر يطغى على الرسم الذي يمثّل طليعة الجند من عسكر طارق بن زياد المرسلين للتجسس وهم يقفون أمام زقاق جبل طنجة، بينما تمكث غالبية الجيش رابضة خلفهم. ومن بين جنود الطليعة حاملو الطبول وأصحاب الزنانير ورافعو اليافطات المخطوطة بطريقة

جميلة: ”... الله، إلا...“. يفرض الأصفر سطوته، في هذه المنمنة المسبوكة بعناية والمعلقة على أحد جدران مصلحة المحاسبة، على كلّ الألوان الأخرى تاركاً فسحة للبنيّ والأسود والقرمزي. أما عدد الفرسان، فلا يزيد عن العشرة، يلبسون ألبسة مصبوغة بألوان مختلفة، منها الأحمر والباذنجاني والأسود والرمادي والأبيض. كذلك العمامات مصبوغة بهذه الألوان. لكن الأصفر هو صاحب السطوة المطلقة. لماذا؟

أما اللوحة الثانية، وهي أكبر بكثير، فتمثل مسجد ساحة الحاكم العام (بلاصة العود كما يسميها الناس والعامة). تظهر أولاً قبّة المسجد الضخم البيضاء يتوسطها شباكان صغيران بيضاويًا الشكل، ومشربيات تشبه القماش المطرز كأنها تمطر رذاذاً رقيقاً شفافاً. ضخامة المسجد توحي بانقضاض هذه الكتلة الهندسية على كل الأشياء المحيطة من عامرات ومارّة و...

من خلف هذه الكتلة، يبرز صنم صغير على قاعدة رخامية، يبدو كأنه ملتصق بالجامع الكبير، ويمثّل فارساً ممتطياً حصانه. ربّما هو الجنرال بيجو، أو دوق أورليان، أو دو بورمون؟ لم أستطع، خلال مراهقتي، تحديد من يمثل حقيقة هذا التمثال، خصوصاً أن العامة تعودوا تسمية هذه الساحة ”بلاصة العود“ أو ساحة الحصان. سأفهم في ما بعد أن ذلك الصنم كان للدوق أورليان، رغم أن مدينة الجزائر احتلها الجنرال دو بورمون وأن الجنرال بيجو لم يكن إلا المنسق العام لغزو البلاد. فلماذا هذا الالتباس؟ هل هو لعبة من ألعاب التاريخ؟ هل هي طريقة الناس في خلط أوراق الغزاة؟ هل... من الجهة المقابلة، تظهر مجموعة من العمارات النيو–مورسكية والنيو–كولونيالية. كذلك أرصفة المقاهي، ثم إعلانات ضخمة ولافتات ملوّنة ورايات رسميّة تدل على رسمية المكان. وراء هذه العمارات تبرز كاتدرائية المدينة، وهي من أصل بيزنطي/ عثماني شيّدها الأتراك في القرن السادس عشر عندما تولوا حكم الجزائر التي كانت مهددة من الجيوش الإسبانية آنذاك. قبل الغزو الفرنسي كانت هذه الكنيسة مسجداً يصلّي فيه المسلمون، وهي تلعب دور البوابة السفليّة لدخول القصبة.

على يمين اللوحة، يظهر حي الأسطول البحري (La Marine) كأنه يموج في ضباب خفيف. وبالقرب من هذا المشهد، يرى الناظر مسجداً آخر يسمى جامع المسمكة، ثم مسجد

الجامع الجديد، ثم مقهى التلمساني، وهو من أقدم مقاهي المدينة، وغالبية زبائنه من عشاق الموسيقا الأندلسية أو الشعبية، وكثيراً ما يتردد عليه العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام والعم مجيد والسيد ألبرت، وزهرة، نصف أختي التي جاء بها أبي من جزر القمر، وفق الشائعة العائلية. كانت زهرة، وفق العم إسماعيل، تنشر الفزع عندما تدخل هذا المقهى بصحبة السيدة مارسيل. هذا المقهى الذي لا يجلس فيه إلا الرجال عادة. في هذا المكان، يدخن الناس النرجيلة والحشيش بطريقة علنية. أما زهرة، فتمثّل الاستفزاز بعينه بقبعاتها الغريبة ورشاقة هندامها وسمرة بشرتها الحريرية وعيونها المكحلة بطريقة استفزارية، فكان يخافها الرجال والذكور وفحول القوم وهي تحت حماية السيدة مارسيل، تلك المرأة "القليلة الهدرة" التي كانت تعرف كيف تتصرف مع زهرة وكيف تربّضها عندما يقتضي الأمر.

إذن، هؤلاء الجنود المصطفون أمام زقاق الجبل الأخضر الذي يُسمّى جبل طارق تكريماً واعترافاً بطارق بن زياد، هم على أهبة الانطلاق والسيطرة على سهل شريس (Jerez)، يبدون كأن الهول أصابهم. ربّما بسبب التركيز المبالغ فيه، رغم أنهم لا يحملون أسلحة كالسيوف والقربينات... إلخ، التي تكون بين أيادي الجند عادة. والأسوأ هو أن العسكر يوحون بأنهم في حالة انتظار وتربّص. واقفين. ذاهلين. مترددين. مت-...

الأصفر الطاغي في هذه اللوحة لا يشبه الأصفر المعتاد. ليس أصفر نقياً، بل قريب من الأصفر ويصعب تحديده. أصفر فاتر، مغيّم، مشوش، ضبابي، وسخ، مزعج. ومن حين إلى آخر، تبرز خلاله لطخات بأحمر قانٍ، باذنجاني إلى حدّ ما. ورغم كلّ تلك السطوة للأصفر، غير أنّ الأحمر هو الذي يسلب النظر لكونه برّاقاً، يوحي للرائي بكل الغزوات، المجازر، التخريب، الدمار، الدماء المسفوحة في الحروب.

لكن كل هذه الأنساق اللونية الموجودة في المنمنمة الواسطية المعلقة على جدار من جدران مكتب المحاسبة تظهر باهتة وذابلة وشبه ممسوخة وشبه متفسّخة. ممحوّة كأنما صُبّت عليها مياه كثيرة بعدما انتهى الرسام منها. ربّما يكون للزمن أثره في ذلك. فالواسطي، المولود في بغداد سنة 1132 ميلادية والمتوفّى سنة 1192 في دمشق، دخل التاريخ منذ قرون، فمنح الزمن أعماله شيئاً نوعاً من الأبّهة الزائدة بسبب خفوت ألوانها ما أضفى عليها الكثير من

الأناقة والجمال. لم أعرف أبداً من أين جاء العم إسماعيل، أو أبي ربما، بهذه المنمنمة المفترض أنّ مكانها الطبيعي هو متحف من متاحف العالم. رفض العم إسماعيل البوح بقصة هذه التحفة العتيقة وكانت أجوبته متلعثمة ومبهمة، فيصيح في وجهي: ”اكتفِ بالتمتع بهذا الجمال الرائع المعلّق أمامك وأنت تُصفّف كل هذه القوائم من الأرقام والشفرات الحسابية! فهي تساعدك على التروي، أليس كذلك؟ لكن حذارِ! أريد أن تكون ميزانيتك موزونة، وإلا ستعيدها كلما انتهيت! أليست روعة الروائع؟ أعني المنمنمة واللوحة الأخرى الكبيرة، ما رأيك فيها؟ هل أنت واعٍ لكل هذا الجمال؟ هل أنت واعٍ لضخامة وفخامة هذا المسجد المرسوم في اللوحة؟ هل اكتشفت بلاصة العود؟... هل هناك شيء أروع؟ قل لي يا ولد؟“ وأنا: ”صحيح يا عمي، إنها جميلة حقاً. إنّها أجمل من الأصل“. يقول: ”آه. أتظن ذلك؟“ أما أنا، فلم أنتبه إلى هذا الفارق بين الأصل والرسم. ”آه...“.

كانت، إذن، غالبية الخيول صفراء تذكرني بالرافعة الصفراء التي حملت نعش أخي. رسمها، في منمنمته، الواسطي، ذلك الرسام العبقري الذي ساند كل الثورات التي قامت ضد الخلفاء الذين كانوا يحكمون في عصره (ثورة الزنج مثلاً، ثورة القرامطة). الخيل تحمل على ظهورها طارق بن زياد وجنده، يحدّقون في سهل شريس. الخيول متجاورة في نسق واحد، باستثناء حصان يحمل رئيس الطبالين يبدو خارج النسق. خلف المجموعة العسكرية، تظهر خمس رايات: راية من النسيج الرمادي تحمل شعاراً مكتوباً بالحرف الكوفي: ”قل هو الله أحد“. راية حمراء مكتوب عليها: ”الله أكبر“، وتتخللها بعض الرسومات المبهمة. راية شهباء تحمل كلمات مكتوبة بالأبيض لا تمكن قراءتها بسبب الخلفية البيضاء أيضاً. لكن، بقليل من التمعّن يمكن فرز كلمة الله. راية سوداء طُرزت عليها: ”لا إله إلا الله“ وهي منقوصة من جزء من أجزائها، ”محمد رسول الله“، ولا تمكن قراءتها لأنها مغطاة برأس أحد الجنود. أخيراً راية رمّانية اللون تحمل عبارة: ”لا إله إلا الله محمد...“؛ تختفي تتمة العبارة خلف أحد ضباط طارق بن زياد.

ما عدا الرايات الخمس البارزة وراء المجموعة العسكرية، يمكن اكتشاف ثلاث رايات أخرى يحملها ثلاثة ضباط من جند طارق الذي دخل الإسلام منذ مدة وجيزة (بضعة أشهر

قصيرة)، قبل أن يتوجه نحو الزقاق الذي سمي جبل طارق، وربّما يكون أحد حاملي هذه الرايات هو طريف بن مالك النّقعي الذي أعطى اسمه للمدينة الإسبانية طريفة Tarifa. الملاحظ أن الرايات الثلاث تحمل الرسومات الهندسية نفسها المخطوطة على اللافتات الخمس، أي المربعات والمثلثات والحلقات والمعينات نفسها، وكذلك الألوان عينها: الكحلي، الأسود الفحمي، مع بعض الألوان الأخرى: الخزامي، الوردي، الأصفر الأشهب. وأقصى اليمين توجد يافطة مستطيلة يحملها أحد القادة بيديه الاثنتين، وهي سوداء في وسطها ومذهبة على أطرافها المزخرفة بطريقة جميلة. لكن لا يمكن الاطلاع على محتواها، ربّما بسبب الضرر الذي أصاب المنمنمة الواسطية، أو أنها إرادة الفنان الذي حاول أن يضفي صبغة فنية تغشى اللوحة كلها وتزيد مهارة الرسام رغم ضيق المساحة. لعل هذا الشعور باللبس والغموض ناتج عن موقف فلسفي أو ديني، أو تطيّري، أو باطني، أو تصوفي، أراده الفنان رسالة خاصة لمشاهديه، فتصبح كل هذه الخطوط والجمل والرسوم تعبر، وربّما تخفي، مواقف طلسمية معقدة. بهذا، يكون محتوى اللوحة طمساً للأشياء لتغدو مبهمة وغامضة وصعبة المنال. ثم تتحول هذه الخطوط آثاراً مشفّرة تنطوي على لغز كبير لا يفهمه إلا هؤلاء المسلمون الغزاة، ويبقى غامضاً على العدوّ المصاب بالدوار والدوران، فيفقد وعيه ويبقى مدهوشاً، وبخاصة لذريق، الملك الفيزيقوطي الذي كان يقود جيشاً عرمرماً مكوّناً من 40.000 جندي كما كتب ابن خلدون والبلاذري والإدريسي (أما المؤرخون الآخرون، فزوّروا التاريخ لنيل رضا ملوكهم). كانت غالبية الجند من أصل غوطي وإفرنجي وغولي. وقد أصيب القوم بكليتهم، إذ أنهكتهم الطلاسم والسحر وكل هذه الأمور الغرائبية، فباتوا مبهوتين ومصعوقين ومغلوبين كمن نزلت عليه الصاعقة. هكذا يخسر إمكاناته ويصرعه هذا الجيش الذي لا يضمّ أكثر من 10.300 جندي من المسلمين وفق ابن خلدون. "وقد كان منهم 10.000 من البربر و300 من العرب". وهم في الحقيقة ليسوا جنداً وإنما من المُرسلين (الطليعة) الذين أرسلهم الله لنشر الدين الحنيف عند الشعوب والقبائل الكافرة والهمجيّة والخارجة عن السنة الشريفة. قال كمال: "وقد نزل عليكم فتحاً مبيناً".

كان السيد ألبرت، وفق العم إسماعيل، مبهوراً بمنمنمة الواسطي التي أبهرتني أيضاً بعد وفاة الرسام الفرنسي–الجزائري. كانت تلك التحفة تلقاني خلال العطل الصيفية التي كنت أقضيها في مكتب عمي فتبهرني مثلما تبهرني اللوحة الكبيرة التي تمثل مسجد ساحة الحاكم، حيث يظهر فيها المرسى بحاملاته (صفراء، شهباء، زرقاء) وهي تحرث السماء حرثاً، فتختلط أحياناً مع النوارس سريعة التحليق وخبيثة الفعل لسرقة السمك، فتخطفه خطفاً. كانت حاملة صفراء، على وجه الخصوص، تجذب الأنظار لضخامتها ولمعان لونها الساطع، فأتذكر يوم وصل نعش... تنطلق تلك الحاملة في الهواء الطلق مخترقة السماء وتدور وتجول كأنها سهم يغزو طبقات السماء الزرقاء فيدخلها ويخرج منها. أين شاهدت تلك الحاملة من قبل؟ داخل المرسى؟ أو داخل الورشة حيث حُطم منزل السيد ألبرت؟ (فيلة جنان سيدي السعيد)، وكان ذلك بعد أن سلبها موظف صغير إثر وفاة زوجة الرسام سنة 1971. وقد تبرعت زوجته، مارسيل، بكل الإرث لمتحف الفنون الجميلة. حُطِّمت ورشة الرسام ومنزله وعُوّضا بمبنى ضخم قبيح. أثناء "الهدم"، كنا، أنا والعم إسماعيل والعم يعقوب والعم إبراهام وكمال، قلقين وغاضبين نتفرج على تدمير هذا المكان المقدس لنا.

مرة أخرى: الحاملة المصفرة (الضباب؟) ثم الصفراء من جديد عند مرورها أمام قطب الشمس، أو عند مرورها أمام قطعة سحاب. حركة مستمرة ومتكررة، إذن، كلما مرت الحاملة أمام هذه الدائرة وأمام هذا المحيط، كأن إهليليجته تقلص حجمها وتطمس لونها رغم أن قاعدة الحاملة المبنية من الإسمنت الصلب راسخة على مستوى الأرضية كأنها مربوطة بحبال صلبة أو مشدودة بكابلات وأحزمة تلعب دور الجذر العميق المغروس في أعماق الأرض. بعد مرور الحاملة، يكبر الظل فيبهر المشاهد كأن خرقة من الصوف الحريري تمرّ على وجهه وجفنيه. أصفر ثم أصفر من جديد. ثم شبه أسود كلما أغمض الرائي عينيه. هكذا تتعاقب كل هذه الألوان داخل بوتقة من الحركات والضوضاء والغوغاء ومجمل هذه الأشياء التي تغمر كل ميناء وكل ورشة في أي مكان من العالم الفسيح. لكن هذه الانطباعات جميعها ليست إلا هواجس ووسواس تتراكم داخل الدماغ وتذكرني بحفيف الأقمشة النبيلة التي كانت تخيطها أمي في ورشة الخياطة التي حُشرتْ فيها، أو التي حَشرت نفسها فيها. تذكرني هذه

الحاملة بالحاملة من النوع نفسه، التي حملت نعش أخي عند وصوله إلى ميناء عنابة وهو يتأرجح بطريقة رهيبة ومضحكة في آن. هي الرافعة مرة أخرى بشكلها الهجين بين السهم والطائر، تتحرك الآن بصمت رهيب مخيف بعد كل هذه الضجة الهستيرية مع حلول الليل. فجأة.

في نهاية المطاف، يبقى الأصفر مسيطراً على كل الألوان الأخرى في ذاكرتي. لكنه ليس الأصفر الحقيقي، فهو...

3 مكرّر

منذ وفاة أمّي في يونيو 1964 (أم 1969؟)، لم تتركني رائحة الموت أبداً. قيل أنها عانت كثيراً من اتهام زوجها لها بالخيانة، ومن انتحار ابنها (العطّاي/ اللوطي) الذي بعث إليّ رواية *Corydon* لأندريه جيد وأنا لم أتجاوز بعد سن المراهقة. لماذا هذه الهدية؟ هل كانت رسالة مشفرة من أخي يصرّح لي من خلالها بميله الجنسي وشذوذه؟ عندما أصبحت كهلاً علمت أن هذا الكاتب الفرنسي كان يقضي فصول الشتاء في مدينة بسكرة الصحراوية الموجودة في الجنوب الشرقي من البلاد، كما علمت أن هذا الشخص كان يضاجع أطفال وبنات هذه المدينة، الصغار والصغار جدّاً، ذلك أنه كان شاذاً ومولعاً بشذوذه وميوله، خاصة أن هذه المنطقة كانت فقيرة جدّاً. كما علمت أن هذا الرجل رفض نشر روايات مارسيل بروست عندما كان مسؤولاً كبيراً في دار نشر فرنسية كبيرة. فكرهته كرهاً شديداً!

وفاة أمي. رائحة الموت، موتها. تعودت شمّ هذه الرائحة كلما دخلت المنزل العائلي القديم (الهرم؟)، وكلما دخلت إلى غرفتي التي أكل الطحلب جدارها الغربي بسبب شجرة التوت الكبيرة القريبة منه، والتي تغطي أغصانها نافذتي. كانت تلك الرائحة موجودة في كل غرف المنزل، حتى في غرفتها التي كانت تحوي فراشاً صغيراً وستاراً أصفر من التول فقط. فتغشى رائحة الموت كل الأماكن وكل الغرف، وحتى الحديقة. بل تغشى كذلك كل الأثاث والألبسة والأجساد وحتى ماعون المطبخ! فتعجبني هذه الرائحة أحياناً وتفززني أحياناً.

كنت وأنا طفل أزور الأحياء القصديرية أيام الأحد لألتقي أصحابي، هواة كرة القدم، فأشاركهم ألعابهم وممارساتهم نكالاً بأبي والأغنياء والأحياء الراقية حيث كان منزل العائلة. وبعد كل مباراة نذهب إلى الأحياء "الحمراء" حيث المواخير والحانات والملاهي، فنشرب البيرة ونشاهد المومسات العاريات، وهنّ صغيرات السن عادة، فتلاحقننا البنات المخضّبة

وجوههن بالماكياج الثخين: ”تعالى هنا يا حبي! المس فرجي فهو أحر من الجمر... لا تخف... تعالى فجسمي حريري. ألمسني وانكحني ولا تدفع ثمن الريق، فهو من عندي“، فنضحك، نحن الأطفال العرب واليهود والأوروبيين، من هذه السخافات ونروح إلى حوانيت الحلويات حيث نختلس منها بعض القطع، وكانت كل هذه الحوانيت (نواويس مصرية وقديمة جداً في أعيننا) موجودة في الأحياء الفاخرة الغنية. كنت أقلد هؤلاء الأطفال الفقراء وأفعل ما يفعلون محبة فيهم وكرهاً بالأغنياء. كان فقرهم يغضبني خاصة حين أكتشف كيف يحتالون لركوب ”الترامواي“ وهو يتسلق أزقة المدينة بسرعة كبيرة، فأفعل ما يفعلون، ويأخذني الدوران وأشعر بنشوة كبيرة عندما أنجح مثلهم في هذه العمليات البهلوانية رغم خطورتها، بل من أجل خطورتها. المدينة. المدينة وهي مجموعة من القبب التي لا تنتهي. بُنىً. هياكل. الصلصالي. الأبيض. الأزرق. السطوح الموزّعة في الفضاء كأنها مرمية على حافة الجبل. دوران. صمت. غوغاء. صخب. ثم الصمت مرة أخرى. كأنها ركام من الورق المقوّى الرطب في آن. المبلولة. المبرقشة المحبحبة. تغوص المدينة التي يحيطها البحر من كل اتجاه فتظهر لنا كشيء من الغموض النباتي والإبهام الهندسي. اليوم وأنا كهل، وأنا أقطن فيها، أتخيل كيف كان يعيش داخلها فرناند إفيتون، وهو من الفقراء وقد صقل الجلّاد الملقب فرناند ميسونير رأسه ليسقط في سلة من القش، فيدخل فرناند في هوة اللاوجود والعدم. لقد أُعدم هذا الشيوعي الناشط في ثورة التحرير سنة 1957 في فبراير، دون أن يقترف أي جرم يذكر. حكم عليه بالإعدام نكالاً. كذلك موريس أودان، ذلك العلامة في الرياضيات ولم يبلغ بعد 21 سنة. كذلك العربي بن مهيدي الذي أُعدم شنقاً في اليوم نفسه الذي أُعدم فيه فرناند إفيتون، أي 11 فبراير 1957!

انتهت الحرب منذ أكثر من ربع قرن، وكانت شجر التوت توشك أن تلتصق بجدار الدار، حتى أنها كانت تلامسه في فصل الصيف وأنا جالس إلى مكتبي، خاصة عندما كنت أعمل حتى ساعات متأخرة من الليل. كنت أكاد ألمسها، أو ألامس أحد أغصانها، أو تلك التي كان يضيئها المصباح الكهربائي على المكتب فتلمع أوراقها لمعان ريش يرتعش بحركة طفيفة في أول الأمر، ثم بحركة أسرع مع تقدم الليل وقد ادلهمّ مؤخر الحديقة وتراكمت الظلمة عليه

طبقات تكاد تكون ملموسة، فيما تتضاعف حركة الوريقات الإهليلجية كأنها مخضّبة بلون أخضر ساطع يتصبّب من الضوء الكهربائي المنبثق من الحجرة التي كنت أتركها مفتوحة على مصراعيها منتعشاً لأدنى نُسيمة تهب آتية من وراء جدران الحديقة وتسري، أو بالأحرى تمتد، رويداً رويداً لتحرك زجاج النافذة حركة خافتة تتصاعد مع هبوب الريح القوية عند انتصاف الليل، وكأن شجرة التوت بكليتها تستيقظ فجأة وتنتفض وتحمحم، لتعود السكينة بغتة دون أي وقت انتقالي. تهدأ الأوراق والوريقات وتسترجع سباتها أو موتها أو انعدامها العميق الهائل، وجمودها المهول، ما خلا الأغصان الأولية التي تتسلط عليها أشعة الأنبوب الكهربائي الصارخة، فتبرز بدقة فائقة في مقدمة الأغصان التي لا يصلها الضوء فيشحب لونها، ثم يغيب عن النظر شيئاً فشيئاً فلا أعود أراها وإنما أحدس وجودها إلى أن تضمحل رؤيتها نهائياً. لكنها تبقى في الحديقة متداخلة، ومتطابقة الواحدة فوق الأخرى، وسط قشرات الظلام المتراكمة التي ينبعُ من خلالها حفيف خفيف أو زقزقة عصافير خافتة، كأنها تطلق من حين إلى آخر صيحة نعاسها، مرتعشة مضطربة متأوهة نائحة وقد تجمعت الآن على أربع شجرات أو ثلاث من البستان حيث صفعتني أمي حين باغتها وهي تنشر خرقها الخاصة (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء عند المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله)، على حبل غسيلها الخاص، المخفي وراء الزيتونة القديمة، قائلة نشازاً: ”لا تلعب حول هذه الشجرة لقد رشت أغصانها منذ مات جدك وتركها مهملة لا يزبرها أحد ولا يداويها شخص، فحتى الجنّان نفسه لا يزبرها ولو تسلقتها، لسقطت أرضاً وتهشم رأسك! اذهب من هنا!“ تجمعت الطيور الآن على ثلاث أشجار أو أربع تتوسطها التوتة المخلافة الضخمة المجنونة التي كان حجمها الكبير يطغى على كل الأحجام الأخرى في المكان، والتي تخلق في الظلمة الدامسة أطيافاً مخيفة مهولة مأتمية كئيبة كأشباح متربعة بتحدٍّ، ليس لضوء المصباح فقط، بل جميع ما تراكم من أشياء مجاورة ومحيطة. أشعر عندئذ أن الألوان تنقلب تحت جفنيّ اللذين أثقلهما النعاس، فتتغير متعاكسة متضاربة متطاردة ويتجزأ مستطيل النافذة الخشبي الاخضرار إلى قسمين: أحدهما مستطيل كرزي اللون (التهاب الجفنين عند بزوغ الشمس أو تلاشيها) وآخر مستطيل زيتوني

أخضر (غزارة التوتة)، وفجأة أبدأ سماع أصوات العصافير الخافتة أول الأمر، التي لا تلبث أن تقوى تدريجياً رغم أن الجو لم يتغير، ولاسيما أن النعاس راح يتسرب إلى خلايا رأسي، فيما يبقى الجو ينقلب وفق تقاليد معهودة وشبه آلية ودؤوبة التكرار. لا يتغير هذا الجو إلا بين غسق وشفق. ثم تبدأ العصافير ترد رويداً رويداً بعضها على بعض بزقزقة خافتة النبرة، كأنها مترددة متلعثمة مترطنة بادئ الأمر، ولا تلبث أن تتجزأ وتتصاعد تدريجياً من الجهات الأربع. ولم يزل غبش الفجر (أو نسق الغروب؟) يتباطأ في انتشاره عبر المحيط، فيخترق النافذة بعد لحظات، فالزجاج، فالحجرة بأسرها، وينغرس في كل زاوية من زوايا الأثاث حتى أدناها. لكن هذه النوعية من الضوء، وإن كانت تجبرني على إطفاء المصباح، فإنها تبقى محتوية لا محالة على شيء من طبقات الليل أو آثار النهار التي كانت تصبغ، بلونها الحالك أو المزرقّ، الكيان الكوني بأسره. كأن العتمة المتبقية في الفجر، والمتكونة من رواسب مادية لا مرئية تسيل وتتقاطر وتمطر، تجعل ريش العصافير الماكثة على السقف وداخل الأشجار وفي أعماق التوتة تتعرّى من لونها الرمادي العادي بسبب انعكاس آخر الآثار الضوئية على ريشها، خاصة أنها وقفت جميعها الآن على قوائمها الرقيقة النحيفة، فراحت تدبّ، من حين إلى آخر، في أجسامها قشعريرة براقة لا تكاد العين تبصرها لشدة سرعتها. وتصادف كل صيحة أو زغرودة انسجاماً مع هذه الوتيرة المتقطعة المتكسرة الفوضوية ذات النغمات المتصاعدة وقد راحت تتفاقم وتتعاظم رويداً رويداً إلى حد الصداع وإذا بـ...

منذ توجيه تهمة الزنا إلى أمي من الأب، تغير مزاجها وانقلب رأساً على عقب، فأصبحت كالمعتوهة، شبه غائبة، نصف ميتة، مدعوكة الوجه، شفافة البشرة شاحبة العينين، تبكي ولا تضع للبكاء حداً، بل تواصله كلما انعزلت في غرفتها. لكنها لا تستطيع مغالطتنا بسبب احمرار عينيها. ازدادت شفافية بشرتها الرقيقة بياضاً، أو اصفراراً، فأخذت تنحل وتتجعد وتتقلص كأن عفتها تبرز من شفافية بشرتها وصفاء عينيها. لكن وجهها لم يخلُ من سحنة طفيلية صبيانية مشبعة ساذجة وطيبة وعفوية حتى المغالاة، وحتى، أكاد أقول، مجردة، تغشى خديها وملتقى الشفتين وجبينها المرمري، ما زاد في بريق عينيها ولمعانهما. وما لبثت

أن تقوقعت على ذاتها وانطوت على نفسها فالتزمت الصمت والرزانة وقلة الحركة، كأنها اختارت الاختفاء والقنوط والتجلي، واعتادت منذ ذلك اليوم المشؤوم المكوث في غرفتها، أو ورشتها، كأنها تترقّب حدوث أمر أو معجزة أو منيّة ما. لعلها كانت تترقب فقط مجيء زوجها فجأة، حاملاً بين يديه البرهان القاطع والحجة الحاسمة على براءتها، وحتّى على جهلها ما تحمل كلمة ''الزنا'' من معنى. عاشت منذ ذلك الحين كالمُسرنمة، النائمة، الباكية، النّواحة، كما نالها الذهول، فاقدةً الشعور والحضور الإنساني، ساهيةً عن الكثير من الأمور المنزلية، متعلثمة الكلام، مرتبكة الأفكار، قاضيةً نهارها ولياليها كأنما مسّها مسٌّ من الشعور بالذنب، فتفاجئها نوبة تأنيبية ذاتية مفادها أنها بالفعل اقترفت خطيئة الزنا وهي عنها بريئة، ما يضاعف شحوبها. يتفاقم انغلاقها وانطواؤها على ذاتها، فنحار في أمرنا، ولا نعرف كيف نقترب منها، وكيف نعاملها، وكيف نتحدث إليها، ولاسيما أنها كانت تكتسب في تلك المدد المتأزمة حساسية مرهفة، فتفرغ نظرتها من كل حيوية أو تعبير عن أي شعور، وكأنها تحولت إلى لا شيء، أو إلى خليط من الحرمان والصمت والكبت في جوٍ ساده مزيج من الرطوبة والحر والاختناق والانحباس والزمن الميت المتعطن والمتعفن الذي يستعصي على المرء مقارنته بأي شيء آخر. وما إن يطغى عليها ذلك الشعور بالذنب، حتى تميل إلى الاعتراف بجرائم وهمية، فتتحول إلى معتوهة لا تعطي الأفعال والحجج والبراهين التي تقدمها إليها زهرة، نصف أختي، أيّ قيمة، وهي تعلم في ضبابية وعيها المشتت الهش أنني الوحيد (مع شريكتي التقليدية زهرة) الذي يحيط بما جرى، وبمسلسل قضية تلك التهمة وما فيها من خلفيات وخفايا، ذلك أنني كنت قد رافقتها إلى منزل ذلك المشعوذ الدجال الذي راجعته رغبة منها في الحصول على عودة الزوج الضال بطرق سحرية، فيما كان الأب يجهل ذلك. وكنا قد راوغناه فاستأذنّا منه زيارة إحدى الصديقات. وهي لم تجرؤ على البوح له بكل زياراتها إلى المرابطين والأولياء والدجالين والرمالين وممارسي الرقية سعياً منها إلى استرجاعه، علماً أنه تزوج عليها أربع زوجات توفّيت الثانية منهم – قمر – ليلة زفافها (أو بعد مرض عضال أو أثناء نفاسها الأول، أو بعد سنوات طويلة من الهناء والسعادة وإنجاب الأطفال، في ظل سيد القوم وليث الرجال...)، لأنها كانت تتسم بكبرياء وأنفة

رائعين، كما أنها كانت تعتقد أن مثل هذه الأمور المتصلة بالسحر والشعوذة وقراءة الغيب إنما هي أمور سرية محضة وحميميّة ترتبط بالنساء دون سواهن، ولا دخل للرجال فيها قط. كنت المؤتمن (وزهرة!) على أسرارها وشريكها الوحيد في أمورها الشخصية والعامة على السواء، الخاصة والحميمة. وعلى ما كنت عليه وصديقي ورفيق دهري وصاحب مصيري – كمال – من عداوة ومحاربة لمثل تلك التصرفات والأمور الخرافية، كنت أقبل مرافقتها إلى دور وأماكن أولئك الأشخاص لما كنت أكنّ لها من حب وتفهم لرغبتها الشديدة والملحة في عودة زوجها وأبي أولادها. فكنا ندخل في متاهات وتعرجات وخلفيات أزقة المدينة القديمة حيث يطفو دائماً مزيج من الزيت المحروق والغسيل الزنخ والسردين السنخ والخميرة القنّة والطبخ القديم. أي تطفو منه رائحة الفقر التي تفوح من جميع الأحياء الفقيرة في جميع مدن العالم، وهي مركّبة من آثار عفنة وبقايا فائحة وانبعاثات كريهة ورواسب طازجة وفوحانات مقرفة وغثيانية وطاعونية وإرهامات دوَرانيّة. كنا نراوح أحياء سيئة السمعة ومنازل مشبوهة وأزقة مينائية مريبة، مقر أولئك الأشخاص (من رجال ونساء) الذين كانت تلجأ إليهم مستغيثة بهم تنفيساً عن آلامها وما تعانيه من عذاب ولوعة. كان من بين هؤلاء الدجالين رجل كثيراً ما أبهرني بذكائه الخارق واحتيالاته الجهنمية وحسه الفطري بما يجب أن يقال أو لا يقال لأولئك النسوة المسكينات، من مطلقات ومتزوج عليهن وعاقرات وعقيمات وعوانس ومطرودات وضائعات ومتهوّرات. كان هذا الشخص زنجياً، بديناً، ممتلئ الخدين، أمرد الذقن، يشتغل حمالاً في الميناء أثناء الصباح ودجالاً في بيته عند المساء. كان يتعمم، أو يشد رأسه بعمامة ضخمة فاقعة الألوان (أصفر قانٍ – الرافعة الصّفراء في ميناء عنابة الحاملة نعش... – أو خزامي بشع أو زعفراني، أو ...) تتناقض وسواد بشرته القاتم، إذ تبدو كنوع من الأبنوس المرقط المجلد المتفزز المجدر، فضلاً عن كونه مقامقاً فحلاً وممثلاً عبقرياً وصاحب حدس فريد وكشافاً عبقرياً. كان صوته يخرج من عمق بطنه على منوال السيل الجارف، فيقلد صوت امرأة عجوز متهولة، صوت آتٍ من وراء القبور والبخور والبحور والمستنقعات والسبخات والشواطئ المعشوشبة. كانت أمي تصاب بالذعر وهي تشاهد هذه الشطحات والدورات، لكنها تعودت السيطرة على فزعها ونفورها واشمئزازها من هذا النوع

من الفحش والقذيعة والرداءة المرغمة على معايشتها، هي البعيدة كل البعد عن مثل تلك البهلوانيات والألاعيب، لكنها بتطيّرها وسذاجتها وتصديقها العفوي لكل ما يُقال تخشى أن تنتقم منها هذه القوى السّحرية الخارقة لقوانين الطبيعة والمنطق، إذا شككت فيها أو طعنت بمصداقيتها أو كذّبتها. وكنت أعلم أنها – على غرار ما كنت عليه – مبهورة أصلاً بصلافة الزنجي وتمسرحه وإخراجه السينمائي وملابسه الزاهية (بعمامته الضخمة القرمزيّة اللون خاصة!) وجنونه وطرافته وابتكاراته التي تجعل منه دجالاً مشعوذاً متميزاً ومتفوقاً على زملائه في الحرفة والحيلة بكثير. ولكم كان ينفرد بِمَلَكَةِ الجنون المطلق!

إذن، كانت أمي محصورة في هذا الحشو الزنائي الذي ينكد حياتها. تجاوزتها القضية فلا تدري ما تفعل بها ومعها، ولاسيما أنها بلغت حدود المعقول والمقبول والحياء وآثرت العيش أخيراً داخل هذا السديم المعنوي والهمجية الاجتماعية والعائلية. فتركت الأمور تميع وتتلاشى بهدوء كأنها في غيبوبة عن الوجدان ريثما تحسم أمرين اثنين: زواج الأب عليها، وتهمة الزنى الموجّهة إليها، أو ضدها. فتحولت حياتها اليومية إلى بضعة أفعال سائبة ومهملة، تنزّ منها رائحة حرشاء جافة (”مكشردة“ كما نقولها بالعاميّة) توحي لي برائحة الكريب الصيني، وزيت تشحيم آلة الخياطة (Borletti) التي أشبعت ثيابها وجسمها وذاتها، فتنقلها معها من مكان إلى آخر ومن غرفة إلى أخرى. صادف تفاقم هذه الرائحة وسيادتها على المنزل بداية قضية تهمة الزنى، وحدث ذلك في الحادي عشر من فبراير 1956، اليوم الذي باغتتني فيه الحشورة.

عندما جاء الأب إلى البيت الذي تركه لسنوات وانهال علينا، أنا وأمي، وزهرة أيضاً، ضرباً وصفعاً وشتماً وعضاً وخبشاً وملاكمة ومراشقة بوابل من الكلام البذيء الفاحش، فهمنا من ذلك كله بعد ساعات طويلة أنه يتهمها بالزنى، ويتهمني بالتواطؤ معها، وزهرة بالتآمر عليه. تفاقم غيظه فبدا مزمهراً مزمجراً عاصفاً متهيجاً كالمجنون أو المسعور أو ”المهبول“. ومنذ ذلك اليوم تغيّر مزاج أمي وشوهت وجهها الجميل مسحة من التعاسة والشقاء لازمته دوماً. تحول الكون من حولنا إلى خواء متحجر يتربص بنا (كل أفراد العائلة بمن فيهم زهرة والعمة فاطمة التي تحدث العراقيل والعاهات والملمات والظروف،

وتجاوزت مئة عام). لقد بدا لنا أنّ العالم توقف فجأة عن مسيرته، وازدادت سرعة دورانه العبثي، فباتت العائلة والناس في حال من الذهول، حائرين لا يعرفون ما الذي عليهم فعله. باغتتهم الأشياء، وباغتتني السمنة فتضخمت وغدوت بديناً. صارت الحياة شائكة معقدة لأمي ولنا، وسيطرت العتمة على كل شيء. وحده أخي الغائب، "العطاي" الذي لم ألتقه أبداً، لم يتأثر بذلك. تفاقمت الأمور وتشعّبت الظروف وصار الاتصال بين أفراد العائلة، خاصة بيني وبين أمي، محكوماً بشيء من القنوط والخمول. يحدث خفية خلف ستار من الصمت الثقيل، إلى أن هاجمتها يوماً، غاضباً، بسيلٍ من الكلام:

لا تنسي أنك بريئة. خنته مثلما خانك وما زال على خيانته كل يوم... أنت لا تعرفين كم من زوجات (ومن بينهن اليهودية هانرييت غوزلان وقد لقبها سيد القوم حسيبة رغم أنها رفضت أن تسلم بحجة أن الرسول تزوج بماري (مريم) النوبيّة دون أن تعتنق الديانة الإسلامية، فبقيت على ديانتها المسيحية، وكفى بالله سبيلاً...) وعاهرات وعشيقات وبنيات صغيرات عنده... أنت بريئة. أنا أشهد على ذلك... أنا ذهبت معك لدار المرابط الأكحل، ذاك السمين اللي يقلد صوت إمرأة ويتجذب ويتخمر ويتهول... راك غالطة ما درت حتى شيء حرام وحتى منكر وحتى خطيئة... ذنبك الوحيد أنك ما زلت تحبيه، ما فهمتكش! علاش تحبيه؟ هذا إنسان يتحب؟ هذا الكلام ماهوش كلام عيب، خليني نهدر، خليني نتكلم موش بالكلام الفاحش، وإنما حق، حق، فقط حق، مجرد حق! ما هبلتش وها اخرجتش من عقلي... هو اللي راح يهبلك ويقتلك بهاذي التهمة تاعو، حرام عليه، إنه استفعل ذلك ودبر له وبيته منذ زمان لأنه أراد أن يتخلى عن عقدة الذنب. حتى كلمة الزنى هذه ما تعرفيهاش وإلى الآن ماكيش فاهما معناها... غلبك وفاق عليك. هكذا عقدك وشككك في نفسك هو قاعد مرتاح البال... هذي حاجة باينة ساهل فهمها وماهل فهمها... راه نغصلك حياتك ونغص حياتنا احنا كذلك، تاني... سقطت في الفخة كما ينبغي سواسوى... كنت معاك عند هذاك المنافق اللي يدجل على النساء، هذاك السمينة بابا عجينة لكحل اللي يتكلم كيف النساء ورابط راسو بتقريطة صفراء والا خزامي والا نيلية والا... نعرفك تحبي تبحثي في القواميس واش معنى كلمة الزنى؟ لذرك ما افهمتيش معناها... راجلك هو الزاني وهو المنافق غير يشوف امرأة يهبل، موش حتى امرأة في بعض الأحيان غير يشوف لباس متاع امرأة يروح فيها يفقد وعيه، يعشق سيدي عشاق وملاق وعشاق وملال وعشاق وبدال... الغريب هو كيف يجد الوقت للاهتمام بكل هذه النساء وهو كل نهار في بلاد وكل نهار في قارة وكل نهار وهو يتاجر ويربح ويغش يأكل في لحمو من اللهفة وحب المال... ويأتي من بعد يتجوسس عليك ويتهمك بتهمة كبيرة ويجيء للدار ويضربنا ويصرعنا ويدوخنا بالهدرة والسبان والشتم... هو الزاني وكبابلو في كل مكان وفي كل دشرة... هو اللي اقطع الصلة مع ولدو البكر خاطر... خاطر... وهكذا بهذه التهمة كلحك وكلخللك حتى صبحت مريضة ساكنة باكمة طول النهار... راك بريئة سنين وأنت رايحة جاية عند الدجالين

والعرافين والرمالين وضاربين الخفيف ودايرين الغيب وعاملين الكذب وعارفين السرقة... تذكري؟
كان كحل وسمين، وجهو مدور وصوته صوت إمرأة كبيرة... يكفيك من هاذ القلق ومن هاذ الغمة...
راك بريئة... بريئة وهو موش بريء.

كأنّ ضوء المصباح في غرفة أمي، أثناء الكلام الكثير الذي انفجرت به أمامها، يستحيل استقطابه أو حبسه أو التقاطه. كان مسكوباً على وجهها المتجعد. كانت بشرتها، لشدة شفافيتها، توشك أن تتلاشى. كأنّني بها طليت بذاك البياض المزرقّ الذي تتصف به أواني الزهور المندشورية (هي دوماً تحت رعاية زهرة فقط، التي تعتني بها وتبدّل أزهارها يومياً). كأنّ أمي كانت تضخ الضوء المتساقط من المصباح على مستوى الوجه وتحتكره، وبعبارة أدق: مجموعة النقاط والشبكات والذرات والحبيبات التي تكون ذلك الشيء المسمى الضوء، وأيضاً هذا النوع من الومضات المتتالية في الوقت نفسه، المتطابقة والمندثرة، المتكدّسة والفوضوية. ولعلّ هذه البقع الضوئية المتناقضة تنتظم على هذا النمط بسبب رهافة وبياض بشرة أمي، فيجذب وجهها الضوء المنتشر في الفضاء ليعاود انتشاره على وجهها فيفرقه نوراً وهاجاً بطريقة ناعمة، أي أنه يطبعه وينحت فيه شبكات حريرية متقنة لا تنبثق من الكهرباء – في الحقيقة – بل من تلك الشبكة الرائعة المركبة من الذرات السلبية والإيجابية التي تكوّن مادة الضوء نفسها. أما شجرة التوت، فكانت أيضاً تنعكس على زجاج النافذة بشكل جلي كأنها تقلد أمي وتحاول استقطاب النور المتسربل من المصباح البوهيمي الذي اشتراه الأب من بوهيمية، بينما القط الأسود (الذي كانت تكرهه والدتي لأنه يخيفها بسواد لونه وتقلبات مزاجه المفاجئة ونزواته وطفراته وأطواره المريبة، ولاسيما أنها كانت متطيرة وتخاف أذيته ولؤمه وسيئاته إلى أن علمت أن المناضل الشيوعي من أصول فرنسيّة، المحكوم عليه بالإعدام، كان له قط أسود أيضاً بكى ونعى سيده يوم أعدم، وتمرّغ على الثياب التي كان يرتديها سيده قبل فصل رأسه على يد الجلاد، وقد وضعتها بية – زوجته – في صندوق من الورق المقوى ريثما تتصدق بها على الفقراء. فدخل القط الصندوق وأخرج الملابس، ثم انبطح عليها وأخذ بالبكاء والعويل والمواء والأنين يومين أو ثلاثة. لما علمت أمي بهذه الحادثة، تصالحت فوراً مع القط الأسود وأخذت تدلله وتداعبه وتعبث وإياه ساعات طوالاً)، يتسلق التوتة. يتشبّث بغصن مقابل لغرفة أمي عند الغروب، أي ساعة

إضاءة المصباح أثناء الاستراحة القصيرة التي تعودت أن تقضيها في غرفتها قبيل وقت تحضير العشاء والدخول إلى المطبخ لطهي المأكولات بمساعدة العمة فاطمة، رغم أنها أمضت حياتها جالسة إلى آلة الخياطة (Singer) المسنة منهمكة بالعمل والتفصيل والخياطة. إذن، يبقى القط جاثماً داخل التوتة الكثيفة اليانعة، على أهبة الانقضاض والقفز والفرار والهرب إزاء أي خطر يدهمه، ويظهر كأنه في الحقيقة يفتعل كل هذه التصرفات لكثرة ما هو جبان ومتوحش في الوقت نفسه. عطوف ومتهجم، حليم ومتحذر. يحتفظ بتلك الوضعية ساعات طوالاً لعله يصطاد فرخاً متأخراً عن أسراب العصافير إلى أوكارها داخل التوتة أو أشجار البستان الأخرى، فيسقط مصادفة في فمه، ذلك أنه كسلان قانط حدّ المغالاة! أو لأن العمة فاطمة وأمي تتخمانه طعاماً ولحماً وشحماً وسمكاً، خاصة منذ المصالحة بينه وبين أمي. القط متأهّب، همجيّ (رواسب غريزة الصيد والقنص انقرضت نهائياً منه؟)، متكور، أسود ولين، لدن الحركات (مع شيء من التوثب الصاعق) بثباته الخارق، لأنه يتظاهر بهذا الثبات فقط، أو بالأحرى لأنني كنت على علم بأنه قادر على الجري بسرعة البرق والقفز على وتيرة الصاعقة، فهاتان الصفتان مزروعتان فيه فطرة وغريزة، بل كأنهما محشوّتان في عضلاته بعمق، رغم أنه فقد منذ أجيال غريزته الأساسية: الصيد. يمكث هكذا داخل هذا المركب العشبي الأخضر المنتظم على شكل مربعات وحلقات ومعينات وطوابع وبقع هالات ضوئية تتمركز حول فضاءات مخضرة يانعة مبقعة متطحلبة ومطاطية الهيئة. أشعر عندئذ أن لمعان الضوء خلف زجاج النافذة منبثق أساساً لا من المصباح نفسه لكن – رغم غرابة الأمر – من وجه أمي، ذلك أنها استرجعت سكينتها وهدوءها وإشعاعها الطبيعي بعد أن أقنعتها بأنها بريئة كل البراءة، فاستعادت (مؤقتاً؟) تلك القدرة الخاصة بها، ليس على ضخ النور واجتذابه فقط بل على إشعاعه وبثه بنفسها. إذن، كان الضوء يبهر القط الأسود إلى حد ما، لكن قفص الترنجي هو ما كان يهمه أكثر من أي شيء آخر! وكان معلقاً إلى أحد أغصان التوتة المواجهة لغرفة والدتي، خاصة أن هذا الترنجي كان، في هذه الحالة الشفقية، كومة من الريش الحريري ينام ورأسه نحو جنبه، أو يتصنّع النوم. وفجأة ينطلق القط (بل هيئته) بعد انتظار طويل وصبر عقيم دون أن يقتنص أي فريسة. ينطلق كشيء أسود مطاطي ومرقط

(أوراق التوتة أو رواسب النور المتبقية، بعد سقوط الغسق، كأنها معلقة على صفيحة السماء الجزائرية التي تبقى مصبوغة بلون أبيض ساطع، قبل أن يعم الليل فيغطي كل شيء؟) ويعبر بسرعة فائقة فضاء التوتة ثم يغيب عن الأنظار كأن الحديقة ابتلعته أو كأنه سقط في شيء من العدم والغيبوبة، أو الغياب المؤقت. يبقى انطباع خفيف وملون في ذهني: شكل أسود يمر أمامي كالسهم. مخطط على مستوى العينين بخط أزرق. إنه الخوف مجسداً (مثلما كانت أنات قط بية مخيفة يوم عادت بالصندوق الحاوي ملابس زوجها عشية تنفيذ الحكم فيه، وما برح القط نائحاً باكياً متلوياً حزيناً والعاً...). ليس فقط جسد قط بما في هذه الكلمة من ميثولوجيا، بل مفهوم كلمة "قط" المبهم، أي ما يحمل هذا المفهوم من حركة، ومجموع الحركات التي مزقت الفضاء ليلاً عندما قفز من التوتة وغاب عن الأعين (أي فكرة القفز والانطلاق والاندفاع والوثوب...).

التحقت بالمقاومة في تلك الفترة، تحديداً بعد سنة أو سنتين من إعدام هذا المناضل وسنتين أو ثلاث سنوات من تهمة الزنى، تلك التهمة الملفقة التي لا غرض منها سوى التخفيف من عقدة الذنب التي كان الأب يعاني منها، ولاسيما أنه أهمل زوجته وتناسى وجودها فأضحت في نظره مجرد شيء مهمل في زاوية من زوايا منزله الذي لا يزوره، شيء معطّل غير متجانس لا يصلح لشيء. فلا يجرؤ على زيارتها إلا مرة أو مرتين في السنة ليشكو سوء معاملة إحدى عشيقاته أو زوجاته، أمّا هانرييت، حسيبة اليهودية، فلم تبلغ بعد، وقد توفّيت فور زواجها به لأسباب بقيت غامضة في نظر أفراد العائلة، كباراً وصغاراً، رغم تأكيد زهرة خطأ هذه الأطروحة التي هي مجرّد شائعة. كنت ألاحظ أثناء هذه الزيارات أن أمي كانت تستمع بإصغاء ومجاملة قصوى إلى شكاوى زوجها وتصريحاته، محاولة تعزيته ومواساته لما أصابه من خيبة أمل، ناصحة إياه بتأبط الصبر الجميل وبرودة الدم، طالبة إليه، خاصة، الامتناع عن ضرب نسائه أو زوجاته أو عشيقاته، وهي أعلم الناس وأدراهم بالأمر... وقد راح عددهم يتزايد تماشياً مع تضخم ثروته التي كانت تتزايد هي الأخرى، فلم يعد قادراً على تسييرها أو ضبطها أو السيطرة عليها. تدور المناقشات ووجه أمي متّسم بملامح الأسى والحزن والتساؤل والسذاجة والعفوية والرزانة وشيء من الفزع. تظهر لي

بعكس الضوء وعيناها نصف مغمضتين. تراءى لي الزوجان متباينين بعض الشيء، متخالفين متناقضين: هي محتفظة بمظهر الفتاة الناعمة العذراء الفاتنة كما كانت قبل أن يتزوجها، وهو طاعن في السن متعنت متشبث مصرّ على هذا الرفض، يلجأ إلى كل ما لديه من وسائل، من صيانة الهندام وارتداء ملابس الشباب وتجميل سحنته، ليبدو أصغر. لكن عبثاً. لقد أهدر طاقاته وبذّر حياته في الأسفار التي لا تحصى، ومعاشرة نساء كثيرات، والمنافسات السياسية، وتربية الخيول العربية الأصيلة واليتامى الأجانب الذين يجلبهم من كل أصقاع العالم، ومن بينهم زهرة التي لم تخضع أبداً لسلطانه، وكان يخافها خوفاً شديداً!

ليلة صعودي إلى مناطق المقاومة كنت خائفاً ومرتبكاً مما كان ينتظرني هناك. كذلك كنت أشعر بالذنب أمام رفض أمي موقفي ورغبتي في الابتعاد عنها وترك المنزل العتيق والمدينة الأعتق. وقد فهمت سيلين مخاوفها خاصة أنها كانت تطلب مني أن أقدم إليها أخبار أمي التي تنعتها باسمها باية، وكلما رفضت إعطاءها أي معطيات، تزحف نحوي وتهاجمني في سريري و"تتلحمس" بشرتي فتترك عليها بصماتها ورائحتها الأنثوية، وآثارها العشقية، لأشعر بشيء من البرودة تسري في جسدي فتبقيني على أهبة الوعي والتركيز، وأغدو متبلور الروح ونافذ الوجود. إنها النشوة. أتحول إلى ذكر فحل، أناني، متغطرس. كنت قد تعرفت إلى سيلين عن طريق أختي المربية زهرة، إذ كانتا، هي والعشيقة، تمارسان الفروسية في النادي الذي يملكه والد سيلين، مثلما كان يملك هكتارات شاسعة وفلاحية ينتج فيها القمح والعنب، ومرابض الخيل العربية الأصيلة. كان رئيساً لبلدية المالح ذات الهندسة المعمارية الرائعة والفريدة من نوعها على مستوى كل القطر الجزائري. وهي غريبة، سريالية الطابع، تذكرني بأسلوب فيكتور شافال. وكان والد سيلين حقيقة يملك الجزائر بأسرها. كان رجعياً ومتعصباً وزنديقاً وعنصرياً يكره العرب. أمّا هي، فهجرت بيت العائلة واستقرت في استوديو صغير يطل على ميناء الجزائر العاصمة.

لا أبوح لها إلا بالقليل من أخبار العائلة: عادات البيت، زلّات أبي، لوعة أمي، انتحار أخي، أنانية العم حسين، ذلك الرجل الخبيث والبدين والمتأنث وقد تربّى في حجر أمه وبين ألبستها الفضفاضة، وروعة العم إسماعيل وعلاقتي الأبدية بصديقي كمال، ذلك الرفيق الرائع

والطريف وصاحب النكت الاستفزازية، الجميل بطريقة خلابة وكثير العربدة (ألم يمارس الجنس مع زوجة الحاكم العام، رغم قبحها، عندما زارت الثانوية حيث كنا ندرس أثناء الحرب التحريرية، وقد انتهز كمال هذه الفرصة كعملية إرهابية ضد الإرهاب الاستعماري؟). كان كمال كذلك لصاً لطيفاً لأنه اختلس مني طابعاً ذا قيمة كبيرة جاء به أبي من زنجبار أو تمبكتو أو جزر القمر حيث تعرف إلى زهرة وأتى بها إلى الجزائر واحتضنها سنة 1943.

مرة أخرى العم حسين الذي لم يشغل أبداً أي منصب ولم يأخذ أي مسؤولية وقد كان يعيش من نفقات أبي. فيقضي نهاره لصق أمه التي لا تترك المطبخ حيث تنشغل في طهي المأكولات اللذيذة، خاصة أنها كانت طباخة ماهرة، وامرأة يتعدى وزنها 150 كلغم. كان العم حسين يعيش بين أحضانها وفي حجرها، يقبلها ويعانقها بطريقة شهوانية غريبة وهي لا تفتأ تطبخ الأطباق الشهية والحلويات المغاربية (كلها من أصل سوري)، فتتذوق ما طبخت بإبهامها المطلي بالحناء حتى تعرف هشاشة اللحم وجودة المرق وطراء الحلوى، وقد اشتهرت بهذه الموهبة، وكذلك بأمومتها التي تكذّب كل تفقّهات علماء الاجتماع وعلماء النفس وعلماء السلالة... إلخ، وكلهم من الأجانب.

كنت أحاول إقناع سيلين وكسب رضاها فأترك ذاكرتي تذهب وتعود وتتلولب وتدور دوران الحلازين على نفسها، فأفهم عندئذ أنني أعيش في مجتمع غريب وخيالي إلى حد بعيد. كان الغروب يدخل من النافذة الغربية فيضع على وجه العشيقة الشاذة نوعاً من رائحة معتّقة لسنين، فيتغير وجهها وأجدها صارت غريبة عني لأنني لم أعد أرى خدها الأيمن وقد أضرمت الشمس فيه نوعاً من الحريق الصغير. أكاد أن أفقد وعيي. لكن لا، إنها بداية استرخاء أمام المراهقة التي أضحت تملك وجهين وجانبين أحدهما متين مغطى بالضوء المتدفق من النافذة، والآخر غير واضح ومبهم. وسرعان ما أصبحت أشعر أنني أيضاً مزدوج الوجه مثلها وهي جالسة الآن، على الكرسي أو السرير، لا أرى غير مؤخرة رأسها. أردت معرفة ما حدث لي، لكنني لم أجد الشجاعة الكاملة لأنهض وأذهب أمام المغسل الذي تعلوه مرآة مبقعة بونيم الذباب (أتذكرّ عندئذ نص الجاحظ المعنون: الذبابة والقاضي، حيث

ذبابة تسخر من القاضي وتبرهن عبقريته اللغوية وذلّه وضعفه في آن). أنظر إلى نفسي في المرآة المعلقة على الجدار المتهرئ المتآكل، الجانب الأيمن، ثم الجانب الأيسر من وجهي وقد غشاهما الضوء الآتي من الخارج معلناً مجيء المساء والبرودة التي ستخلّف وراءها الحرارة الحالية. كيف العمل حتى لا أزعج صديقتي بتصرّفاتي، وحتى لا أوقظ فيها غريزة الاطلاع؟ أكتشف أن لوجهي شكلين، وأن خدي الأيسر أضخم من الأيمن وفق تناقضات طبيعية لا تظهر جلياً إلا عندما أنظر في المرآة، مثلي مثل سيلين، كما استفقت على أن ثدييها الصغيرين كانا كذلك متباينين. نوعاً ما!

باريس

20/02/1959

حسان

أمام هاتين اللوحتين تلعب الذاكرة لعبتها، تتراكم الذكريات وتصعد من عمق الأشياء (خاصة تلك الذكريات المرتبطة بمنزل العائلة، ووفاة أمي، وجنازة أخي الل...، وإعدام عدد كبير من الثوار الجزائريين من كل الأصول والأجناس والديانات، وألاعيب صديقي العزيز كمال، وتعرفي إلى سيلين وقضية سلب إرث السيد ألبرت)، كما هو الأمر بالنسبة إلى الهوس الذي يلازمني ليلاً نهاراً. أتفاعل بغسل اليدين، ثم الوجه، مستعملاً رغوة الصابون المعطر، ثم بحلق ذقني، ثم بتحضير القهوة، لكن دون جدوى: العمّة فاطمة لا تزال تلاحقني، وقد سميتها في الماضي ديلسي وهي تمثل الخادمة الزنجية الخارقة، التي تلعب دوراً أساسياً في رواية **الصخب والعنف** لوليام فوكنر. كما كنت قد سميتها أحياناً فرانسواز وهي الخادمة في رواية **البحث عن الزمن المفقود** لمارسيل بروست، رغم أن الأخيرة تختلف كل الاختلاف عن الزنجية. كانت فرانسواز بيضاء البشرة، رقيقة الهندام، هشة الهيكل العظمي، بينما كانت ديلسي سمراء البشرة وسمينة الجسد، وقد احْتضرت العمة فاطمة لساعات بعد

أن دهسها "الترامواي" عند مروره في السادسة وعشر دقائق صباحاً بالدقة. وكنت، وأنا ابن ست سنوات، قد رافقتها، فبقيت ذاهلاً أشاهد احتضار المرأة العجوز دون أن أفهم حقيقة الأمر، ظانّاً أن الحادث الرهيب ما هو إلا مسرحية هزلية وضعها الكبار للتأثير فيّ وتخويفي. هوس! تلك الفطائر التي أخرجت من تحت "الترامواي" ولم يمسها ضرر، فبقيت كاملة وسليمة، يتقاطر الزيت منها قطرة قطرة، محتفظة بحرارتها الأولية، ساخنة، قضيمة. دام احتضار العمة فاطمة ساعات طويلة، ذلك أن رجال المطافئ لم يتمكنوا من انتشال الجثة. جسد مقسوم إلى جزأين متساويين. منطقياً كان عليها أن تلقى حتفها فوراً لكنها، رغم كبر سنها، لم تمت إلا بعد ساعات طويلة، لا أحد في البيت يعرف سنها بدقة. كانت العمة فاطمة شمطاء مع الأولاد وصعبة المجاز مع الكهول. لم أرها تضحك أو تبتسم مرة واحدة في حياتي. وقورة كانت، كتومة، جادة، غاضبة، عبوسة، حردة، مستاءة، قمطريرة، لم يعرف أحد سبب العرج الذي كانت تعاني منه. لكن، هل كانت عرجاء حقيقة؟ لعلني كنت أظن ذلك لأنها كانت درداء الفم الذي لم يبقَ فيه إلا سِنْخٌ واحد أخضر يزعجنا، نحن الأطفال، حتى الغثيان وما بعد الغثيان. الرعب والإرهاب. وإذ لم يسألها أبداً أحد من أفراد القبيلة عن صحّتها المتدهورة، فلأنه يعلم أنها لا تجيب عن أي سؤال. ولما حلّت بالمنزل لعنة تلك التهمة الخبيثة بحق أمي، جُنّ جنون العمة فاطمة، فهوت في بئر من الصمت وتحولت إلى امرأة مسالمة. فقدت عنفها وروح المشاكسة بالكامل. ومن حين إلى آخر، حين تخرج العجوز من صمتها وحزنها تسقط في مطبة الهذيان وتقول أشياء بذيئة وكلاماً عنجهياً. ثم تعود من جديد إلى صمتها الذي يدوم لأشهر. توفّيت العمة فاطمة هكذا هفوة وغفوة. ماتت العمة فاطمة، ركيزة البيت العائلي، موتاً بشعاً. هزأة، ماتت تحت عربة "الترامواي" بعد

أن حاربت الهلاك ساعات وهي تتخبط في دمائها ومياهها ودموعها (هي التي لم تبكِ طوال حياتها!). كان النهار جميلاً والشمس رائعة الاصفرار. كان الجو... كنت في رفقتها. كنت في سن الخامسة، أو السادسة؟ لقطات جهنمية: الدم غزير، الأمعاء ملقاة على الأرض، متبعثرة، مرتعدة، حشرجة، غرغرة، موت، إبهام، لا شيء، عدم، اسوداد، ثم الصمت النهائي... لاحظت آنذاك بعض "الزوافرية" وهم يحاولون اختلاس سلة الفطائر المصنوعة من الحلفاء. ظننت أنّ مآل العمّة فاطمة أن تبقى كل الحياة تحت العربة الكهربائية. الكابوس، الكابوس، ثم الكابوس مرة أخرى، خاصة أنني لم أكن أعرف آنذاك معنى كلمة "الموت". إبهام على إبهام. تكسرت خريطة الحياة شذاذاً. لم أبكِ. لم أصرخ. لم أفهم. وبقيت أعيش هذا الغموض والإبهام إلى يومنا وأنا كهل يحمل صفة مهندس معماري، وصديق حميم لشخص اسمه كمال.

وإذا كان احتضار العمة فاطمة بعد أن دهسها "تراماواي" السادسة وعشر دقائق صباحاً قد طال، فكذلك كان الأمر لجدّتي، وهي تلك المرأة الضخمة التي فرضت على كل أبنائها نظام الأمومة بطشاً ونكالاً وغروراً وعنجهية. كما فرضت عليهم سمنتها وفنّها المطبخي. توقّيت وكان موتها مختلفاً عن موت العمّة فاطمة. فجاء لطيفاً نوعاً ما ومسرحياً نوعاً ما. احتفظتُ بصورتها يوم جاءتها المنية. كانت الصورة شهباء (أو بنية؟)، مهتزة، ضبابية. وقد تمت تقاليد الموت ذلك اليوم على ما يرام لأن الجدة نظمت كل الأمور وأدتها بإخراج مسرحي دقيق ومفصل قبل موتها بأيام. بعد أن لفظت النفس الأخير احتفظت جدتي بوجهها الشرس ونظرتها الساخرة. هكذا، وهي مسبولة على فراشها، بانت كعروس ليلة زفافها، إذ كانت تلبس قفطاناً ثميناً من القطيفة المزركشة، وتحمل كل مجوهراتها العتيقة والثمينة، وبعض المجوهرات الأخرى التي استلفتها من عند الجيران. وقد طلبت الجدة أن تؤخذ لها صورة قبل مماتها ببضع دقائق. فجلست على عرش فراشها أثناء هذه العملية التي أجراها مصور كان مطالباً من الشرطة الفرنسية أن يعيش بسرية كاملة، فلا يخرج من الأماكن التي يختفي فيها

إلا لتصوير بعض الأعراس وبعض المآتم المنظمة من المناضلين السياسيين فقط؟ يُخرج هذا المصور آلته من حقيبته الصغيرة ويركّبها بسرعة البرق، ثم يبدأ التقاط الصورة تلو الأخرى، فيخلّد هذه المرأة الرهيبة. ولعله أراد أيضاً أن يخلّد شراستها وبطشها وهيمنتها، وبخاصة شجاعتها.

أما زوجها (أي جدي)، فكان قصير القامة يشبه الدّمية، أزرق العينين، أشقر البشرة، وردي الخدود، أمرد الذقن ولطيف المزاج. لكن كل هذه الصفات لم تمنعه من إنجاب أكثر (كم بالضبط؟) من عشرة أطفال تقريباً، من بينهم أبي الذي أصبح في ما بعد شيخاً جليلاً ورئيساً وقوراً لقبيلة كبيرة، ورجل أعمال يملك غريزة التجارة بطريقة جنونية، لكنه كان يخاف أمه التي كثيراً ما كانت تهزأ به وتضحك منه وتقهره تحت سلطانها القاتل. رغم ذلك، صُوّرتْ جدتي، إذن، وهي التي روّعت أبي وأحبّت عمي حسين، ابنها الثاني، حباً كبيراً كنت أشك فيه، وأهملت العم إسماعيل ابنها الثالث إهمالاً لا نعرف سببه أبداً. وقد نغّصت هذه الصورة طفولتي، فكنت أخرجها خلسة، من حين إلى آخر، فأحملق فيها دقائق طويلة. صورة شهباء أو بنية؟ الورق نفسه الذي لم يعد في الخدمة منذ زمن طويل، لأكتشف كل مرة هذه المرأة الضخمة، تمنعها سمنتها من المشي، فتتنقل من غرفتها إلى المطبخ بمساعدة خادماتها وبعض أفراد الأسرة (كذلك كان الأمر لموسى بن نصير، أليس كذلك؟) المتطوعين. ذلك المطبخ، حيث تأخذ بزمام الأمور، فتنظم طريقة العمل فيه وترأس طهي الأكلات اللذيذة والأطباق العابقة بروائح التوابل والحلويات المغاربية والمثلجات والشربات وراحات الحلقوم... إلخ. تذوق المراقي، تغمس سبابتها الملطخة بالحناء في الطناجر الفخارية والقازانات الفولاذية، ذلك أنها، رغم شراستها وقبحها ومداهنتها، كانت تعتني بنظافتها بطريقة مرضية. كما كانت مهووسة بالدقة والنظام. لم تكن جدتي تقوم بشيء غير الطبخ والطهي، الشيء الذي جعل منها امرأة مفرطة البدانة، فات وزنها القنطار ونصف القنطار!

صاحبتني صورة جدتي كل حياتي، كنت أحتفظ بها وهي كنز ثمين لي، لأنها تبرهن وتقدم الحجة القاطعة على الأمومية ودورها الكبير في المجتمع الجزائري والمغاربي والإسلامي كذلك، الذي يتظاهر بكرهه للنساء واحتقاره لهن. كان جسدها متورّماً (كانت تخفي هذه

العيوب تحت ألبسة فضفاضة) وقد تآكلته الشحمة الكثيرة. زد على ذلك أنها كانت تمشط شعرها بطريقة جميلة وتحمل ضفيرتين كحليتين ورائعتين، خاصة أن شعرها لم يعرف لا الشيب ولا البياض أبداً. كذلك وجه رشيق وأملس وصقيل بخدين ورديين كأنهما من خزف صيني أو أندلسي يشبه اللازورد (Lapis Lazuli). هذه الصورة، حيث تظهر فيها جدتي وقورة وعبوسة وقمطريرة وكلها أنانية، متحدية الموت، وحتى الإله (كانت قليلة التدين، والدليل أنها قبلت زواج أبي بيهودية لم تعتنق الإسلام وكانت تتردد على المعابد اليهودية ولا تشعل النار عشيّة الشبات، أي عشية السبت، فأعوّضها وأشعل النار بدلاً منها. لكنها كانت كذلك تتردد إلى المساجد وتصوم في رمضان وتحترم بعض الشعائر الإسلامية وتفرح بكل الأعياد الدينية مهما كان أصلها. وفي يوم من الأيام، سألتها عن رفضها الدخول في الإسلام فقالت: "لماذا أعتنق الإسلام وقد رفضت مارية النوبيّة، زوجة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، الدخول فيه وهي مسيحية الديانة؟ كذلك فعلت سارة! كلنا من أهل الكتاب، يا ابني... كلنا سواسية!).

إذن، كانت جدتي لا تحب إلا ابنها الأوسط، العم حسين، الذي تربى بين أحضانها وتنوراتها الداخلية الفحفاخة. ومن حين إلى آخر، كان هذا الابن يجلس على عرش الصندوق المالي في مقهى الجزائر الموجود وسط قسنطينة والمملوك لأبي. أما العم إسماعيل، ابنها الثالث، فكانت تكرهه كرهاً شديداً رغم أنه كان يحبها ويحترمها، مثلما كان السيد ألبرت يحب أمه حبّاً جمّاً وهي التي شجعته على ممارسة الرسم رغم أن زوجها، العامل في شركة السكة الحديدية في بوردو، كان يرفض هذه الموهبة ويسخر منها.

غداً سألتحق بالمقاومة في جبال أوراس الشامخة. في الصباح الباكر سأسافر نحو المجهول وقد بدأ يتآكلني الخوف. البارحة تناولت مع سيلين أربياناً مشوياً في مطعم شعبي يطل على البحر، حيث اقترح علينا أحدهم شراء كمية من الحشيش فجاء ردي عنيفاً: "لا! لا! أبداً"، وانزعجت سيلين من رد فعلي. قلت لنفسي مشاكساً: ماذا أنا فاعل مع هذه الطفلة القاصرة وأبوها من المستعمرين الأثرياء ومن الرجعيين المتعالين والعنصريين؟ يكره العرب واليهود وقد شارك في الحملة المناهضة للسامية في الفترة الفيشية والفاشية المتعنّفة والنازيّة الخبيثة

(Vichy 1940)، وكان كذلك صديق مول المنتمي إلى الفاشية ويرأس بلدية وهران آنذاك. بعد عودتنا من المطعم الشعبي غسلت قميصي في مغسل الحمام. فضحكت صديقتي الصغيرة مني. السيارات السريعة تمر على رصيف الميناء المحجّر فتُرعد كيان الاستوديو الذي نسكن فيه. النافذة مفتوحة على مصراعيها. سقف القرميد يرسل أشعة قرمزية. غابت الشمس بعد أن طلت قرميد السطح طيلة النهار، فبقي لامعاً رغم المغيب الذي اكتسح المحيط كلية. كذلك الأعشاب اليابسة ذات اللون الأقرب إلى الحمرة البارزة هنا وهناك بين خطوط وشقوق القرميد. يحطّ السكون بوداعة داخل تلك الجروح، وتبقى سيلين جالسة القرفصاء واضعة فخذيها المتينين والغليظين تحت مؤخرتها الفخمة، رغم صغر سنها ونحافة جسمها، فيذكرني عريها على تلك الهيئة بلوحات السيد ألبرت الممثلة لنساء عاريات، وهي لوحات قليلة العدد عند هذا الرسام الفذّ الكثير الاحتشام والحياء، الذي لم يرسم تلك الرسوم إلا أثناء دراسته في المدرسة العليا للفنون الجميلة في باريس، بصحبة بونرد وماتيس وبنيون الذي كان هو الآخر يكثر من رسم العُريِ بألوان حارّة كالقرمزي والوردي والأحمر القاني، على وجه الخصوص. كانت العشيقة الصغيرة أيضاً مطلية باحمرارات الغروب في هذا الصيف الملتهب. الأفق الوردي يرسم خطاً دائرياً. قالت: "لماذا تريد أن تعاقب نفسك بنفسك؟ تريد الانتحار؟ أخبرني، لما هذا القرار المفاجئ؟ اهدر! تكلم وبح لي بأسرارك! تريد الالتحاق بالمقاومة وهي ليست بحاجة إليك!" بقيت واقفاً أمامها مشدوهاً عارياً يغمرني الحياء. لست أدري لماذا تذكرت آنذاك أبي ونساءه وزوجاته وعشيقاته ومومساته... تذكرته فأشفقت عليه وعلى نفسي: كل هذه التراكمات التافهة التي تكوّن المصير الإنساني البائس بأشيائه الخفية والقذرة، ومقولاته الكاذبة والمسكوت عنها، وأعماله التجارية. كنت مشدوهاً، أقف مشدوداً إلى عريي الفاحش. تتأرجح خصيتاي بين فخذيّ، ويتدلى قضيبي رخواً سخيماً أشبه بلحمة، أو حشى لين وهش. إنّه لا يصلح لغير متعة بائسة تدوم لثوانٍ فقط. ربما تكون كلمة fofo الإسبانية الأبلغ لوصفه. إنّها وضعية مزرية حقاً. سأصعد الجبل حيث تنتظرني المقاومة.

رافقتني أمي بصحبة زهرة إلى الحافلة في الصباح الباكر. سيلين رفضت وداعي. هل فرّت؟ هل عادت إلى منزل أبيها؟ طلبت من أمي ألا تبكي فانصاعت لرغبتي. لم أطلب شيئاً

من زهرة لأنها كانت صامدة وصامتة ووقورة. كنت أرتعد خوفاً وأنا على دراية بما يفعله الجيش الفرنسي في المناطق الحربية. كنت على دراية بالتعذيب والتنكيل والاغتصاب ثمّ... صعدت داخل الحافلة تاركاً أمي وزهرة واقفتين فوق الرصيف صامتتين خائفتين رائعتين! وعيون أمي الزرقاء... صعدت إلى الجبل. جُرحت بعد أشهر قليلة فسرّحني جيش التحرير وأرسلني إلى الاتحاد السوفياتي، ثم إلى الصين الشيوعية، ثم إلى فيتنام وهي أوج حرب تحرّرها. هكذا تجوّلت حول العالم رافعاً راية جبهة المقاومة. وأخيراً كُلّفت مهمة في برشلونة لتهريب السلاح من إسبانيا إلى الجزائر عن طريق المغرب سنة 1961 (يوليو). بعد عام جاء الاستقلال، يوم 5 يوليو 1962، فأعادني الحنين إلى وطني وقد أصبح أسطورة في ذهني... الاستقلال، ثم الخيبة، ثم الرشوة، ثم جاء الإحباط. النكسة... و... السّلب.

في تلك الأيام، بعد مغادرة البلاد، كنت أحلم كثيراً بماضيّ، وبمكتب العم إسماعيل، وباللوحتين المعلقتين على أحد الجدران. وكنت أتذكر خاصة منمنمة الواسطي الممثلة للجيوش الإسلامية محتشدة قبالة المضيق الرابط بين طنجة والجبل الأخضر، وهي على أهبة غزو الأندلس والفتك بها والتقتيل فيها واغتصابها مع نسائها: المجزرة! الطامة الكبرى! تذكرت كذلك أبي وهو يحملق في منمنمة الواسطي فخوراً، وأنا أقول: ”إنها الفظاعة بعينها، يا أبي!“ قال: ”اخرس فأنت خائن وغدّار وجبان!“ قلت: ”لكننا أيضاً حاربنا أناساً بريئين!“ قال مرة أخرى: ”اخرس يا لئيم!“ قلت قاصداً استفزازه: ”ألم تعلم أن الواسطي كان ثورياً ومعجباً بثورة الزنج؟ ألم تعلم أنه كان يقدم أموالاً طائلة لمساعدة كل الثورات الإسلامية: ثورة الزنج وثورة القرامطة؟ ألم تعلم أن الدولة الإسلامية كانت تستجلبُ الزنوج من قرن أفريقيا لتدجين نهري دجلة والفرات؟ هذا ما تقوله رواية ألف ليلة!“ ينهال عليّ ضرباً. أصمد. يذهب إلى حاله وهو يتمتم: ”ابني مجنون! ابني خائن!“

أتذكر كذلك العم يعقوب والعم أبراهام، وهما من أصل يهودي ووطنيان كبيران، رغم نطقهما الغريب. لقد ساعداني أيام المحنة والشدة، أيام الحشورة والسمنة، أهدياني ميزاناً إلكترونياً لم أستعمله أبداً. بعد خلاصي من المرض قال العم إسماعيل: ”كنت أفضّلك سميناً وبديناً و...“.

4

اشترى السيد ألبرت فيلا جنان سيدي السعيد سنة 1941، في أوج الحملات العنصرية ضد اليهود الجزائريين من قبل اليمين المتطرف المحلي الذي ظهر منذ سنة 1875 عند صدور مرسوم كريميو. وفوراً كتب الرّسام رسالة إلى صديقه هنري ماتيس يقول فيها:

> هذا المنزل هو الفردوس زائداً حديقة تفوق مساحتها الهكتار... تعالَ يا صديقي. لقد انعزلت في هذا المنزل ولم أعد أرسم حتى خطاً واحداً. لكنّني أتعلم العربية على يد زوجتي مارسيل وهي أستاذتي الصارمة والمتشددة. أقضي ست ساعات في الدراسة كل يوم، لا أكثر ولا أقل. إنني مسرور جدّاً. بدأت أيضاً ممارسة الخط العربي. شيء جميل وأنت الأخبر بهذه الأمور. لقد التزمت التصوف يا رفيقي منذ وقت طويل. هل لا تزال تلبس الملابس العربية؟ اللغة العربية روعة الروائع، خاصة أن مارسيل أستاذة قديرة وكذلك الجنايني واسمه علي يساعدني في تعلمها أيضاً، ولعله أكثر صرامة من زوجتي. لكن لم أرسم لوحة واحدة منذ سنتين! ذلك أن هذا السرطان الذي يأكل العالم بأسره يمنعني من العمل. الفاشية! النازية الألمانية... أكره هذه الحرب... أكره كل الحروب!

بعد وفاة السيد ألبرت سنة 1947 قررت زوجته، وهي مؤسِّسة جمعية النساء الجزائريات المدافعة خاصة عن "الشغالات" المسلمات اللاتي يعملن في دور الأوروبيين فيستغلهم هؤلاء ويغتصبوهن ويعذبوهن، كما كانت تدافع عن النساء العاملات في المصانع، قررت البقاء في بلادها الجزائر. شاركت في ثورة التحرير منذ انطلاقها (1954/1962)، وبقيت تحافظ على لوحات زوجها إلى أن وافتها المنية سنة 1971 وقد أهدت للدولة الجزائرية كل ما تملكه من بيت وورشة زوجها وعشرات من لوحاته، وحتى الكثير من الأموال المصرفية، لكن سرعان ما انقضّ أحد الموظفين المرتشين على كل الإرث، فكانت الطامة الكبرى ولم تحرك الدولة آنذاك ساكناً. بقيت هذه الفضيحة مجرد ملفّ موضوع في أحد الأدراج وقد كتب عليه بالحبر الأحمر: "سري للغاية". سلب هذا الشخص فيلا جنان سيدي السعيد وهدمها وبنى مكانها عمارة متعددة الطوابق وقبيحة الهندسة. عندما علمنا ذلك، العم إسماعيل والعم يعقوب وصديقي (زميلي الآن) كمال وأنا، حاولنا تلافي هذا الأمر الفظيع، وأسّسنا مجموعة من

المحامين، وتقدمنا بشكوى ضد ”فلان مجهول“، ولكن دون جدوى! فبقينا غاضبين وثائرين أمام هذا السطو الموصوف والواضح كل الوضوح. طُمست القضية وتستّر المسؤولون الإداريون على الفضيحة. إذن هو سلبٌ واستلاب وسطو ورشوة.

> فلمّا عُزل هذا القاضي الملكي، سنة 788 هجرية، احتفظ السلطان بهذه الولاية في القاهرة تأهيلاً لمكاني، فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المصمود، ووفيت جهدي بما ائتمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة ولا يزعجني عنه جاه ولا سطوة ولا مال، مساوياً في ذلك بين الخصمين، آخذاً بحق الضعيف... ذلك أن أغلبهم من المرتشين. ووقفت على بعض المفاسد فعاقبت فيه بموجع العقاب ومؤلم النكال... فعاملت الله في جسم ذلك بما آسفهم علي وأحقدهم إذ اكتشفت من بينهم رجالاً ظالمين ومرتشين، فرفضت كل مداخلة ورفضت أموالهم ومصالحهم الخاصة وكان ذلك حتى على مستوى عائلتي (ابن خلدون، السيرة الذاتية)

عندما أصبحت كهلاً حاولت نسيان هذه المصيبة بزيارات عدة، برفقة كمال، إلى المتحف الوطني حيث بقيت بعض لوحات (ما نفد من السلب) السيد ألبرت معلقة على الجدران. بقيت اللوحة التي شاهدتها، وأنا مراهق، في مكتب العم إسماعيل تسطع في المتحف: ”مسجد ساحة الحاكم العام“، وقد استرجع الآن هذا الجامع اسمه الحقيقي: ”الجامع الجديد“ أو ”جامع البحر“ أو ”جامع المسمكة“. وأنا أشاهد هذه التحفة مراراً وتكراراً سألني كمال مستفسراً عن أسباب وجود هذه اللوحة في مكتب العم إسماعيل والعم يعقوب. كان أبوه حاخام الكنيسة اليهودية الموجودة في مدخل القصبة (جامع اليهود) ومن أهم المناضلين الوطنيين أثناء حرب التحرير، كما أبناؤه جميعاً، وعددهم خمسة عشر وكلهم من الذكور. وبقيت عائلة تمسيت في البلاد ولم تغادر مثلما فعل غالبية اليهود و”الأقدام السود“ وقد أجبرتهم ”منظمة الجيش السري“ (OAS) على ذلك بشعار بسيط ورهيب: ”النعش أو الحقيبة!“ سنة 1962، وأفشي في ما بعد سرّ من أسرار الثورة يبوح بمسؤولية أحد أبناء الحاخام، وقد كان خريجاً جامعياً متخصصاً في الكيمياء، عن صناعة القنابل اليدوية التقليدية التي استخدمتها المقاومة في ثورة التحرير، أثناء معركة الجزائر الشهيرة التي شنها آنذاك الكولونيل بيجار 1957. كان هذا العقيد السفاك من بين الضباط الذين خسروا معركة ديان بيان فو، في فيتنام، حيث أُسر لسنوات هناك. كان نقمة على سكان الجزائر العاصمة، وحي القصبة العتيق تحديداً، كأنه أراد الانتقام لهزيمته في فيتنام. ديان بيان فو، زرتها سنة 1961، هي مطبة إستراتيجية

جهنمية من عبقرية الجنرال جياب الذي لعب دور الدليل والمرشد أثناء هذه الزيارة في عين المكان، خاصة أن هذا اللواء كان قصير القامة، صيباني الوجه المستدير، ومتقناً جيّداً للفرنسية التي استعملها أثناء هذا المشوار.

كنت مهووساً بمنمنمة الواسطي، وقد رسمها الفنان سنة 796 هجرية، وكذلك بلوحة السيد ألبرت الذي صورها سنة 1932 ميلادية. عملان يعطيان فكرة متناقضة عن الإسلام. كانت اللوحتان معلقتين على جدار إحدى قاعات مكتب المحاسبة حيث... أتذكر أيضاً إزعاج الساعة الجدارية الضخمة والرهيبة واللّاهوتية، كأنها تتجسس على كل حركاتي، وهي بمكانة الآلية التي تتقاطر منها الثواني والدقائق والساعات ببطء كبير. كنت أصفّ الأرقام تلو الأخرى والقلق يتآكل دماغي وأمعائي، خاصة أن الكهول حولي كانوا يراقبونني بصرامة كي لا أخطئ في هذه المحاسبة اللعينة، وأنا جالس أمام مكتبي مختنقاً لشدّة الحرّ الذي لا تخفف وطأته المروحة الكهربائية.

كنت أترقب زيارات السيدة مارسيل التي تمنح المكتب جواً لطيفاً وزهواً خفياً بدعاباتها وقهقهاتها وقبعاتها الملوّنة الكبيرة والغريبة الأشكال، وكذلك بدلاتها الأنيقة، وقفازي التول الأسود، والعطور العابقة التي كانت تصيبني أحياناً بدوار لا مثيل له. أتمتع هكذا وأنسى الحسابات والأرقام والموازين البنكيّة. كانت زهرة ترافق دائماً السيدة مارسيل حين تزورنا، وقد تزوجت زهرة منذ مدة قصيرة بالسيد ألفريدو، ذلك الرجل اللطيف، الصامت، السكوت، الرزين، الذي يعيش دائماً في ظل شخص ما. وبعدما كان يعيش في ظل السيد ألبرت، ها هو الآن يعيش في ظل زهرة زوجته! فأتساءل: لماذا تزوجت زهرة بهذا الرجل الساذج الخنوع وهي المرأة ذات الحيوية والعصبيّة والمزاجيّة، التي تملك قدرة على الكلام وفصاحة لا مثيل لها، وكانت، قبل زواجها، تجيب الرجال الذين يحاولون جلبها أو قنصها: "أفضّل أن يأكل الدود فرجي على أن تقربوه أو تلمسوه!" كانت بفطرتها قادرة على كهربة المحيط، فيحار العم إسماعيل ماذا يفعل أمام هذا العنفوان، وهذه اللغة السوقية التي تستعملها، وهو يحبّها حبّاً جمّاً. كذلك العم يعقوب والعم أبراهام. كانت زهرة عادة تلبس ملابس زاهية ولصوقة فتطلق العنان لنفسها، وتدفق منها شبقية رهيبة، وتنساب من جسمها شهوة قاتلة للرجال كلهم. في

السنة التي خضت فيها امتحان البكالوريا، كانت زهرة تتردّد كثيراً على مكتب المحاسبة، وتبثّ الهلع في المكان، بجمالها الخاص، وبشرتها الحريرية، وعينيها الزرقاوين زرقة بحر هائج، وقامتها الطويلة، وهندامها المهفهف. لماذا صارت حينئذ زوجة السيد ألفريدو الذي يمارس الرسم دون موهبة، وقد جاء من صقلية بداية القرن العشرين، واستوطن في الجزائر، فأصبح يخدم مصالح السيد ألبرت بكل نزاهة وعفوية! بقيت زهرة، حتى بعد زواجها، "الموديل" المفضل للرسام الكبير الذي وقع في حبها الأفلاطوني، وفق أقوال العم يعقوب.

أصبحت زهرة الموديل المفضل للسيد ألبير بعد أن تعرّف إليها، خاصة أنها كانت زرقاء العينين وسمراء البشرة وطويلة القامة ورشيقة الهندام وفارسة شموخة وموهوبة لا تمتطي إلا انبهار، المهرة التي اشتراها أبي بشراكة العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام. لكن حقيقة الأمر أن هذه المهرة العجيبة هي ملك أبي، وكل ما قيل عنها إنما هو محض إشاعات روّجها بعض الأشخاص والأقارب وقد حركتهم الغيرة (ولما علم موسى بانتصار طارق، حركته الغيرة. ابن خلدون. المقدمة). وكان أبي لا يهتم كثيراً بانبهار بسبب انشغاله الدائم.

تعرف الأصدقاء الثلاثة (العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام) إلى بعضهم بعضاً في معسكر لودي الذي أسسته دولة فيشي، فزُجَّ اليهود فيه، وحدث ذلك ما بين 1940 و1942 حينما صدر مرسوم يجبر اليهود الجزائريين على الالتحاق بمعسكرات شُيدت لحبسهم وقمعهم والتخلص منهم. لكن لماذا وجود العم إسماعيل في هذا المعسكر وهو مسلم؟ بقيت هذه القضية عالقة في ذهني مدّة طويلة، وهذا لم يمنع العم إسماعيل من تلقيني دروساً سياسيّة حول العنصرية والتاريخ والنازية والوطنية وحكم فيشي... لكنّني لم أفهم أبداً وأنا مراهق كل هذا الإشكال السياسي المعقّد. صرّح لي العم إسماعيل بأن عنصريّي الجالية الفرنسية كانوا ينعتون اليهود باللواطيين ويستعملون كلمة pédé عوضاً عن youpin الرائجة في فرنسا. لماذا؟ لم أعرف أبداً سبب هذا الفرق اللغوي.

كانت زهرة في الحقيقة من أصول بدويّة صحراويّة. أما أنها من مواليد جزر القمر، فهذا من باب التأويل والخرافات التي حيكت حول أصولها، وقد ساعدت هي على نشر هذه الشائعات الكاذبة. قيل أيضاً أن أباها كان من أغنياء القوم، وشيخ قبيلة كبيرة ومشهورة

تتجول في منطقة الجنوب الشرقي للجزائر. كما قيل أنه فوّض ابنته لأبي قبل انتحاره بأيام. كما كانت نصف أختي لا تفقه شيئاً في أمور السياسة رغم حرص السيدة مارسيل على تلقينها الدروس في هذا المجال: الطبقية والشيوعية والعنصرية والاستعمار والاستغلال... كانت زوجة الرسام الكبير تحارب الإهانة التي تعيشها الخادمات الجزائريات اللواتي يعملن في دور المستعمرين الذين تعودوا ضربهن واغتصابهن واستغلالهن بطرائق فظيعة. لكن زهرة لا يتحرك لها ساكن عند سماع خطابات السيدة مارسيل فتقضي هي الأخرى أوقاتها في العناية بالورود الصفراء الموجودة في حديقة منزل العائلة، وفي امتطاء انبهار وترويضها، والاهتمام بنفسها. تصرف ساعات طويلة في تَطْرِيةِ وجهها، وفي الاعتناء وحك جلود الأحصنة خاصة. كانت زهرة تعتني بإبريق من النحاس الخام، عتيق جدّاً، وقد وصل سعره إلى أرقام خيالية في دُور البيع بالمزاد. كما يشاع في العائلة بطريقة متكررة أن الفتاة تملك قدرة الكلام مع الخيل، فتعرف كيف تهمس في أذن انبهار، المهرة الرائعة، توصياتها التقنية ونصائحها التكتيكيّة عشية كل مباراة لسباق الخيل. لكن حقيقة الحقيقة أن زهرة كانت تعاني من مرض الانطواء، وتعيش الأزمات الهستيرية العنيفة والرهيبة، خاصة أنها كانت مهووسة بالمبهمات والشّفرات، فتتخيل أشخاصاً مجهولي الهوية يطاردونها في الصحراء أثناء الكوابيس التي ترهقها وتؤرّقها. تتذكر آنذاك بعض المشاهد التي عاشتها وهي طفلة صغيرة: عساكر فرنسا وهم يقتحمون خيام القبيلة فيضرمون النار فيها، ويذبحون البدو الذين يعيشون هناك، ويغتصبون النساء بالجملة دون رحمة ولا شفقة. كانت زهرة تتذكر خاصة مشهداً لا يزال ينغّص حياتها. تتذكر أن أحد الجنود، وهو من أصل سنغالي، يقطع أذني أمها بخنجره، ويسلب شنفاتها الثمينة ثم يغتصبها بعنف حيواني، ثم يذبحها وقضيبه لا يزال في فرجها فيصرخ عندئذ لأنه غاص في نشوة لا مثيل لها، بعدما بلغ انتعاظه الذروة. كانت كلّ ليلة تهجس بطفل صغير من البدو يُطلق عليه الرصاص وهو خارج من خيمته بشوشاً ضاحكاً فرحاً مرحاً. فيسقط فوراً على الأرض وتتلطخ قشابيته الصغيرة بالدم بعد أن أصابه جندي فرنسي بطلق ناريّ. كانت زهرة، خلال هذه الأزمات المجنونة والكثيرة، تترك فراشها وتلتحق بأمي في فراشها، فتنام وهي ترضع إبهامها رغم أنها كانت شابة في العشرين. يرى

العم إسماعيل أن رئيس العائلة (أخاه حسان الجزائري) قد أخطأ في تربية الأطفال إذ يأتي بهم من بلدان مختلفة وبعيدة كل البعد عن الجزائر، فلا تُحترم عاداتهم ولا...

الصيف حار جدّاً في قسنطينة، يكتسح القيظ (الطّمبك كما يسميه ناس هذه المدينة، وهذه الكلمة مشتقة من كلمة طمبوكتو المدينة الماليّة) الوهّاج أنحاء المدينة وكل الأحياء. تصل الحرارة رطبة إلى الحديقة بفعل النتونة المتسربة من الخابيات المملوءة صوفاً مبلولاً، والمنسّقة إلى جوار التوتة الأسطورية التي رافقت مراحل حياتي وحياة الجدود. إنها رائحة الصوف المبلول والمرمّث في الماء قبل غسله في المغسل الواقع خلف الحديقة. أيضاً تبدو مخضّبةً مبرقشةَ الريش في القيلولة اللزجة العصافير الرائعة المدللة التي يعتني بها عليّ، المسؤول عن الإسطبل حيث تُرَبّضُ انبهار، المهرة الرائعة التي اشتراها الأصدقاء الثلاثة وظلّ شراؤها غامضاً ومشكوكاً فيه. يصرف علي وقتاً كثيراً في ترويض الخيول التي يشتريها الأب من كل أصقاع العالم مثلما يأتي بالأطفال اليتامى الذين يلتقيهم في تجوالاته حول الكرة الأرضية. تعوّد عَلي، بمعية زهرة، تعليم الكناريّ الزقزقة بطريقة خاصة في الصباح المبكر قبل أن تستيقظ الأحصنة التي تحتاج ساعات كثيرة من النوم. شرائط الغسيل متداخلة أحياناً ومتوازية أحياناً أخرى ومنشور عليها الملاحف والأسمطة والأبسطة بألوانها المختلفة الرّائعة، لأن زهرة هي التي تشتري هذه الأشياء المنزلية.

قسنطينة بجسورها المعلقة والمتأرجحة في مهب الريح الصيفية العاتية، وأسواقها المزخرفة بجمل لاتينية تتحدث عن حروب يوغرطة الأمازيغي (*AB Oppido Cirta Undique Ita Jugurtha Spes Frustrata*) من العهد الروماني، والمملوءة بحوانيت وطاولات صغيرة أحياناً وضخمة أحياناً: تراكم اللحوم (رؤوس الخرفان والأبقار المعلقة) والخضراوات (منها النعناع والكزبرة والبقدونس) والفواكه والأسماك. وراء السوق شوارع كبيرة يخترقها "التراموي" (دهس أحدهم العمة فاطمة في صباح مبكر) الذي يجرجر عرباته الحديدية القديمة والمزعجة بضجيجها، وهي صفراء اللون (أم زرقاء؟)، ومكتظة إلى حد كبير، يمتطيها "الزوافرية" مجاناً. كذلك حوانيت الحدادين وركامهم المكوّن من أكداس الخردوات العتيقة ذات الرائحة...

في تلك الليلة، أنفدت زهرة صبري بتزمتها إلى أن أصبحت شديدة الإغراء في أواخر الليل، قبل انبلاج الصبح البارد المنذر بحرارة الصيف الملتهبة. كانت في الواقع منبهرة بسلوكي وحركاتي وليس باضطرابي. قالت لي بعينين تكاد تغشاهما الدموع: ”إنّها غلطة الحزن، حزن ليس وليد البارحة، وليس له علاقة برحيلك غداً إلى الجبل. كآبة قديمة جدّاً، كرْبٌ أزلي... إنها غلطة الحزن، لكن أتدري؟ الكرْبُ لا يضير... إنها أول مرة أمارس فيها الحب مع رجل. معك فقدت عذريتي، معك أنت! لأنني أردت ذلك... أنت تعرف، أليس كذلك؟“ كانت تبالغ في سعادتها المزيّفة والمفاجئة إلى حد ما، لأنها كانت تود أن تبقى جافية الطبع، قاسية القلب، على استعداد لتحمل نتائج كل أعمالها دون نشاز، ودون أي ندم. لم تكن ترى في تشويراتي المتهيجة وفي عينيّ الجاحظتين سوى دنوّ نوبة ندامة عديمة الفائدة قد تفرّق بيننا من جديد. كان عليها أن تنسيني هذا الفسق الذي تود محوه كلياً: ”أنا لست أختك على حد علمي، لا بالدم ولا بالرضاعة. لِم تخلق كل هذه المشكلات؟ كل هذا لأنّك أصغر مني سناً... هذا ليس ندماً... إنه كبرياء... لست سوى ذكر... أنت كالآخرين في نهاية المطاف“. وعندئذ أجهشت بالبكاء وهي تعلم أن علاقتها الجديدة غير محتملة، لكن لا يمكن تداركها. أنغلق على نفسي، ورغم الضغينة التي أكنها ضدّها، كنت معجباً بها لأنها بمجرد خروجها من وهنها وجمودها كانت تنفجر في المطلب الأكثر كليّة: أن تكون سعيدة، وأن تُشبع هذه الشهوانية وهذا الشبق (كانت تقول: لا أحب هذه الكلمة الهمجية) الخارق. لكنها كانت غارقة في سيل كلماتها العَرِم، كأنها تود أن تذبذب وتشوّش كل المعايير المعهودة التي استعملتها إلى ذلك الحين لكي تفرز الواقع وتستوعبه أفضل، وتوضّح الرؤية فيه إلى أن تفك طلاسمه وتجعله مفهوماً فتكون راضية به على أقل تقدير! لكن هل كلّ هذه الذّكريات هي...؟

خلال كل ليالي الأرق الطويلة تلك بقينا ساكنين. قالت زهرة: ”وسيلين؟ كيف سيكون ردها على ما...“. لم أجب. نُحاول ارتقاء حلقات الزمن كسلسلة من مصائر متنافرة معلّمَة بكل الأولاد المتبنين من أبي، الذين يعيشون بشيء من الالتباس كل مراحل حياتهم وأماكن وتواريخ ولادتهم وأسماءهم المختلسة التي أضحت ألقاباً يفرضها عليهم بالطريقة نفسها التي يتفنن فيها بإيجاد أسماء رائعة لأحصنته، كأنه بهذه الطريقة يضمن الاحتفاظ بهم لنفسه ويمنع

عنهم أيّ آثار يمكن أن توصلهم يوماً إلى أصولهم، وبذلك يجنبهم الغم ومطبّات أخرى. لكنه لم يفكر في الفسق الذي تطالب به زهرة بعنف قائلة: ”إنه فسق مزيف، مثلما أنت أخ مزيف وأنا أخت مزيفة ولنا أب مزيف وأم مزيفة... هذا ما لا تريد الإقرار به، لأنك لو فعلت، ستقود حياتنا جميعاً إلى الفراغ، إلى نوع من تبلور الضمير المزيف، المتخلص كلياً من الحزن والكآبة والندم“. ثم ذهبت زهرة إلى غرفتها وعادت بكتاب:

> هل كانت لك أخت يوماً ما؟ كلا، جميعهن مُومسات... كادي امرأة أيضاً. لا يجب أن تنسى، قد تفعل أيضاً بعض الأشياء لأسباب أنثوية... في الجنوب، تخجل الفتاة من عذريتها. الشباب، الرجال يحكون أكاذيب شتى حول هذا الموضوع لأنه كما قال لي بابا، بالنسبة إلى النساء، الأمر أقل أهمية. قال لي إن الرجال هم الذين اخترعوا العذرية وليس النساء... بابا يقول إنها مثل الموت: حالة نترك فيها الآخرين بكل بساطة، وقلت: كأن الأمر لا يضيرك. قال لي: لهذا السبب كل شيء حزين وليس العذرية فقط. وقلت: لماذا ينبغي أن تكون كادي بدلاً مني أنا التي فقدت عذريتها؟ قلت: لقد اقترفت فسقاً يا أبتاه، هكذا قلت.

فَهمتُ بمجرد توقف زهرة عن القراءة أن الأمر يتعلق بمقطع من **الصخب والعنف** لوليام فوكنر الذي التهمت كل أعماله. قرأتها وأعدت قراءتها بفضل أستاذ الإنكليزية ذي الأصل الأوروبي، الذي طُرد من الجزائر ونُقل إلى تونس لتعاطفه مع المقاومة الجزائرية. أطفأت النور، وتابعت مضاجعة زهرة بضراوة وشراهة، مدركاً في تلك اللحظة بالذات أن السائل الذي ينهمر كان دماً، دم عذريتها. وربما دم استشهادي المقبل، لا محالة!

في اليوم التالي، ذهبتُ إلى الجبل. كنت على موعد مع أحد زعماء المقاومة في مدينة باتنة، وكان مقرراً أن يوصلني إلى منطقة جبلية وعرة صعبة المسلك. رافقتني المرأتان إلى تلك المدينة في القطار (أو الحافلة؟ لا أتذكر!). وعشية الرحيل، حضّرت لي زهرة وجبة فاخرة وشهية لم أمسّها، وأهدتني حبها الحقيقي الأول، فانغمستُ فيه قلباً وقالباً بعد كثير من التردد والرعونة. ثم حلّ الندم. لكن ألم أقضِ تلك الليلة مع سيلين؟ يقول كمال: ”لقد أصبتَ يا رفيقي... اختلطت أمورك كالحابل بالنابل... لكن!“ أنا: ”لكن ماذا؟“

الأربعاء 26 أغسطس 1956. العاشرة صباحاً. الميناء رازح تحت وطأة عدد هائل من الأقواس والمحلات أسطورية الهيئة لمجاورتها البحر. الصور والأشكال في الميناء ذات معالم حادّة لدرجة اضطرننا معها إلى وضع نظّارات سوداء على أعيننا فغدونا مثل جماعة

من القتلة المتنكرين. كان الرصيف يعجّ بأناس يرتدون إكسسوارات أوروبية مضحكة وربطات عنق رغم الحرّ الشديد، وعمّال أبي، والأعيان، والقضاة المتواطئين مع الوالد. وكان كمال متستراً بلباس مستعار قليل الاحتشام ليحجب هويته عن جماعة المرتّلين الذين كانوا ينشدون بأصوات جميلة أناشيد تصف ويلات يوم القيامة، وتتحدث حصراً عن الكبريت الأصفر وآلات حادة تبقر بطون الكفار وتَكْوِي المنافقين. كنت لذلك أشعر بالقلق، وأخاف على كمال في وحدته أمام البحر الخالد وقد اخترقه في حركة ترنخية مشدوهاً مثل عدّاء يجري في سباق فينهشه عنف حركاته. ومن البحر اللامتناهي والأدغم، جاءنا النذير المفجع متلخّصاً في صيحة عاوية من صفارة الباخرة. لم يكن في وسعي أن أترك رفيقي كمال وأبتعد عنه خشية الوقوع بين حين وآخر في كمين المرتلين، إذ سيجتمعون متراصين حولي لتشريكي على أحسن وجه في لعنة ذلك الجسد (جسد أخي "الغائب") المسترخي المتعفن الذي سنرى عما قريب تابوته يبرز من الباخرة معلقاً على رافعة غريبة وعجيبة (صفراء)... تابوت أخ...

ألغي فوراً هذه الذكرى ونعش الغائب وميناء عنابة وأعود إلى أحياء قسنطينة وحوانيت الحدادة فيها بركامهم الجلاب (أكداس الخردوات النحاسية والبلاستيكية) وبائعي الصحف التي تحمل عناوين ضخمة.

ثم "الترامواي" مرّة أخرى، الخارق لشوارع المدينة وهي على قيد أنملة من الأخوار والأوهاد العميقة والمدوخة والمسببة للدوار. رائحة الأخطبوط المشوي. الحادية عشر ليلاً يغلق التجار حوانيتهم ويغادرون إلى أحياء أخرى (الأحياء العربية: رحبة الصوف، ربعين الشريف، القصبة).

أخاف من زهرة لأنني لا أعرف بدقة أي شيء عن حالتها المدنية. يبهرني كذلك مسار علي، المشرف على مربط الخيل العائلي. وعلي مكرر، مساعده، الذي فر في يوم من أيام فبراير 1940 بعد أن جرجر وراءه أربع مهرات من الطراز الرفيع تحمل كل منها أسماء رائعة على غرار انبهار، كما اختلس علي مكرر هذا حقيبة مملوءة بالأوراق النقدية، وقد وقع في ماخور من مواخير عنابة حيث نَعش أخي... وميناؤها الضخم. كان الرجلان يترددان

عليه وقد أصبح هذا الماخور المكان المفضل لصديقي كمال وصديق آخر اشتهر بـ"المؤذن" لأنه اشتغل إماماً في أحد مساجد المدينة دون أن يفقه في الدين شيئاً. كنا كلما دخلنا هذا الماخور، يبدأ "المؤذن" قنص إحدى المومسات، أوديت، وهي جزائرية من أصل فرنسي، سمينة الجسد وطاعنة في السن، وهو لا يريد منها غير مجوهراتها ليدفع، بعد بيعها، أموالاً كثيرة لصاحب الحانة المدين له بمبالغ خيالية. كان "المؤذن" تلميذاً في الثانوية نفسها التي كنا ندرس فيها، أنا وكمال، في قسنطينة. لكن، يقول كمال، ومن يعرف أوديت، تلك الشخصيّة التي كان يحركها مارسل بروست: **البحث عن الزمن الضائع؟** فيرد عليه "المؤذن" الذي يحمل ثقافة عالية جداً: "لا يعرف أحد روايات مارسيل بروست ولا رواية **عوليس** لجيمس جويس"، يقول كمال: "حتى أنا لم أقرأها... إلا أنت أيها المؤذن... وشخصيّة مولي ما رأيك فيها؟"

- أسرع في إحضار الشاي!

يجيبها: "الماء يغلي"، لكنه يتباطأ في نزع الأشياء عن الكرسي: تنورتها التحتية المخططة، ملابس مكمشة ومتسخة. وبغمرة من ذراعه، وضع السروال القذر أسفل السرير.

بينما كان ينزل إلى المطبخ نادته: "Poldy!"

– ماذا؟

– اغسل الإبريق بالماء المغلي!

كان يغلي، لا مجال للخطأ! بخار خفيف ريشي يخرج من البلبل. سلق ثم أفرغ الإبريق ووضع فيه أربعة ملاعق طافحة من الشاي وأمال الغلاية لسكب الماء. بينما كان يُنقع، أنزل الغلاية ووضع المقلاة فوق الجمر المتأجج وأخذ ينظر إلى قطعة الزبدة تنزلق وتذوب. وبينما كان يفرد الكلى، تمسحت به القطة بمواء ينبئ بجوع. "إذا أعطيتها لحماً كثيراً، ستكف عن الاصطياد". يُزعم أنها لا تأكل الخنزير. شعائر. هراء! "طز!" (أنا أيضاً لم أكن آكل الخنزير... مجرد شعائر، طز! إلى ذلك اليوم الذي تعطل فيه القطار الذي يربط بين برشلونة ومدريد ليومين حيث بقيت جاثماً ثمانيَ وأربعين ساعة في قلب المانشا المقفرة والمجلدة في عزّ الشتاء. في اليوم الثاني من الانتظار، أكلتُ، بعدما أوشكت على الموت جوعاً، شريحة

من النقانق كانت مرمية على الأرض. وسخة ومقرفة. لكنني تلذذتُ بها حدّ التهلل، أولاً لأنني كنت جائعاً جدّاً، ثم لأنني كسرت بذلك شعيرة، وبكسرها تخلصتُ منها نهائياً. منذ ذلك الوقت أخذت آكل الخنزير بتلذذ، كمعتنق جديد إن صح التعبير!). ترك الورقة الملطخة بالدم تسقط في متناولها وزج الكلية في الزبدة التي كانت "تنشنش". فلفل. نهل قرصة من حفة البيض المثلومة وذرذر بشكل دائري. بالشوكة، غزّ الكلية وجعلها تصطفق وهو يقلبها، ثم وضع الإبريق فوق الصينية، وبرفعه، جعل حدبته تهتز. كل شيء موجود: شطائر مطلية بالزبدة، سكر، ملعقة، قشدتها. نعم.

قالت: "كم كنت بطيئاً!"

جعلت النحاس يطقطق وهي تعتدل بحيوية وبكوع على الوسادة. كان يستشف دون عناء استداراتها الناتئة والمجال بين نهديها المكتنزين الناعمين المتهدلين تحت قميص نومها كضرعي معزاة. كان دفء لحمها يتصاعد من السرير ويختلط بنكهة الشاي الذي تسكبه. ماذا تودّ أن تقول يا ترى؟ تبعاً لإشارة إصبعها أخذ من فوق السرير سروالها التحتي الوسخ بإحدى رجليه. كلا؟ إذن مشد الجوارب الرمادي الملفوف على نفسه والمنكمش حول فردة جورب. نعل معوج، براق.

– لا، ذاك الكتاب.

جورب آخر. تنورتها التحتية.

قالت: "ربما سقط".

تلمس هنا وهناك voglio e non vorrei. أتساءل هل تلفظ كلمة voglio جيداً. ليس فوق السرير، لقد انزلق دون شك. أنحني وأرفع الملاءات. كان الكتاب مفروشاً على الأرض ومستنداً على القصرية البرتقالية (جميس جويس، **عوليس**) التي كان يحبها بجنون وتركها بسرعة كبيرة بمجرد أن أنفق كل ثروتهما في فرنسا (الكوت دازور). لكنّني لم أكن، فقط، تعيساً في برشلونة بل كان لي بعض اللحظات من السعادة وبعض الذكريات الطيبة، ففي هذه المدينة، شربتُ الكحول لأول مرة في حياتي، وفيها أيضاً خالفتُ التحريم القرآني بأكل الخنزير، وفيها أخيراً وخاصة أصبحت ملحداً.

كان أصل ”المؤذن“ من مدينة سوق أهراس، قرب الحدود التونسية، حيث أُجبر الأصدقاء الثلاثة (العم إسماعيل والعم يعقوب، والسيد سرفاني، أحد المقربين إليهما) على المنفى أثناء دولة فيشي من سنة 1940 إلى 1942، وذلك في معسكر لودي، وحيث اختفى علي مكرر وبقي يراسل زهرة ويهتم بمصيري عندما التحقت بالمقاومة، لكنه كان يريد إخفاء ندمه بعدما سرق الخيول والأموال من أبي في ليلة من ليالي عنابة، إثر سكرة في ماخور ”القط الأسود“. يقول ويكرر: ”لا بد أن أذوق كل التوابل“.

بعد مرور ثمانية عشر عاماً على هرب علي مكرّر، مساعد علي المربي الرسمي لخيول العائلة، كنت متأزماً وثائراً وقد أرهقني التعب والخوف والشجار الدائم مع زهرة ومع سيلين، وكان ذلك عشية انتقالي إلى جبل أوراس حيث مخيمات المقاومة، فلا تكتفي سيلين ولا زهرة باللجوء إلى فراشي وهي تمص إبهامها كما كانت تفعل زهرة مع أمي أيام طفولتها حتى تغوص في نوم عميق، بل بدأت لومي، فتبهرني وتضحك مني: ”لماذا الدخول في المقاومة! لماذا؟ هل تريد الانتحار؟ هل سئمتني؟“ فتغمرني الكراهية والغضب والخوف. أهتف عندها إلى زهرة وأسألها عن أصلها الحقيقي هرباً من المشكلات التي أتخبط فيها. فترد: ”ما دخلك في أموري... أنت خائف... أنت خائف وقلق لأنك ستلتحق بالمقاومة غداً! فلا تُدخلني في أمور تافهة، رجاء!“

كانت الاستفهامات تجلب زهرة وتبهرها بسبب أصولها الغامضة. من أين أتَت (هل من جزر القمر؟ من الصحراء الجزائرية؟)، ولماذا هذا الغبار المذرى على هويتها وهوية الآخرين ممّن جلبهم أبي إلى بلادنا. لقد تشتّتت هذه الهوية وأصبحت هشة خاصة أنّ رئيس القبيلة كان يحبذ الكنيات ويفضّلها على الألقاب، وذلك حباً في هؤلاء الأطفال اليتامى الذين يذر عليهم الحنان المفرط ليغطي نقائصه الأخرى، خاصة أن زهرة كانت تعاني من القلق الشديد والسويداء السوداء والحالكة، وتكره حياتها فتراها حزينة وفارغة وعادية، هي التي تحب خرق نظم الحياة كلها. حتى جسدها الرائع كان يقززها وكانت تشمئز منه حدّ الغثيان: ”كُلّي ثقب وثقب وغدد وغدد!“ وفي ما يخص لقبي المستعار، تغضب زهرة عندما أسألها عن أسباب هذا الكسر لاسمي الحقيقي فانتحلُ وأصبح ”راك“، عوض رشيد، فيجن جنونها

وتصرخ فيّ: ”أنت تافه! لماذا يقلقك هذا؟ اترك الأب يتصرف كما يشاء وهو ربما بنعتك هذا يريد البوح بحبه وحنانه... إنك لمحظوظ! لا تنسَ أن الاستعمار الفرنسي سرق أسماء الكثير من الجزائريين وسلب شخصياتهم وجاء بهذه الحروف الثلاثة (S.N.P)، أي ”عديم اللقب“، لسرقة أراضيهم وطمس هويتهم، أنت محظوظ!“

زجرتني سيلين عشية صعودي إلى الجبل حتى أَصْبَحَتْ نوعاً من الهالة المضيئة في حلول الليل المباغت وانبلاج الفجر المفاجئ. لكنها في الحقيقة أرادت إخفاء خوفها وخوفي أيضاً. تقول: ”لسنا مسؤولين عن كل هذه الأحداث الطارئة التي لم نكن ننتظرها ولا نحدس بها. لسنا مسؤولين عن كلّ هذه الحروب الخارجة من بئر الطفولة... بئر الطفولة عميق لا قاع له ولا نهاية! السبب الأساسي هو الكآبة يا راك... زد على ذلك أنني لست مسؤولة عن عنصرية أبي ولا ظلمه الغاشم وكرهه للعرب ولليهود في هذا البلد، وللشيوعيين من أصل أوروبي... هل تعلم؟ هل تعلم أن للكره إيجابياته أيضاً! إنه يجعل من الإنسان رجلاً واضحاً ومتبلوراً... الجلاء، يا رشيد... ثم الصفو كذلك. أنت تعرف أنني أحبك وقد أهديتك عذريتي يا راك... وأنت تمنح هذه الأمور أهميّة وهي مجرد تفاهات لأنني ما زلت قاصراً... موقفك موقف ذكوري وفيه شيء من الكراهية للنساء... ألا تظن؟ ألا...“. لم أنْس بعد هذا التوبيخ. ما تقوله زهرة: ”حياتنا خطأ وكلنا مزيفون وأنت لا تعترف بهذه الأمور، لأن التعمق في هذه الأشياء يجعلك تعطي لكلمة الفراغ معنىً... الفراغ هو نوع من تبلور الوعي الحقيقي والخالص عند الناس“. ثم تفتح زهرة كتاباً لا يفارقها وتقرأ:

> هل كانت لك أخت يوماً ما؟ كلا، جميعهن مُومسات... كادي امرأة أيضاً. لا يجب أن تنسى، قد تفعل أيضاً بعض الأشياء لأسباب أنثوية... في الجنوب، تخجل الفتاة من عذريتها. الشباب، الرجال يحكون أكاذيب شتى حول هذا الموضوع لأنه كما قال لي بابا، بالنسبة إلى النساء الأمر أقل أهمية. قال لي إن الرجال هم الذين اخترعوا العذرية وليس النساء... بابا يقول إنها مثل الموت: حالة نترك فيها الآخرين بكل بساطة، وقلت: كأن الأمر لا يضيرك. قال لي: لهذا السبب كل شيء حزين وليس العذرية فقط. وقلت: لماذا ينبغي أن تكون كادي بدلاً مني أنا التي فقدت عذريتها؟ قلت: لقد اقترفت فسقاً يا أبتاه، هكذا قلت.

وسرعان ما فهمت أن هذا المقطع من رواية **الصخب والعنف** لوليام فوكنر.

تنفجر أشجار الجكراندة في فصل الربيع فتزرقّ الحديقة فجأة وبطريقة مهولة. يؤلمني هذا الجمال المفرط وأفقد وعيي. تعاودني لوحة الواسطي من جديد وأفهم منها أن أجدادي هم الذين غزوا الأندلس والغرب كلّه فأصبحوا بذلك أوائل المستعمرين في تاريخ الإنسانية. لذا أنا معجب بالسيد ألبرت الذي رسم كل المساجد الموجودة في الجزائر وخاصة المسجد الجديد، أو مسجد البحر أو مسجد المسمكة، وقد عنون هو هذه اللوحة: ”مسجد ساحة الحاكم العام“. بعد وفاة الرسام تزوجت زهرة بالسيد ألفريدو ولم تعد بطبيعة الحال ”الموديل“ المفضل للسيد ألبرت! في هذه الأثناء، كان العم إسماعيل يصيح في وجهي: ”اتركنا وسمنتك! استقم يا ولد... هذه هي الحياة والحياة مأساة، أو لا تكون. قال هذا الكلام المسعدي، أو طه حسيين، لست أدري! لم ترَ بعدُ أي شيء من هولها... سترى... الحرب قريبة وهي على وشك الاندلاع... تمهل يا ولد! أوف من هذه البدانة“. وهنا يتدخل العم يعقوب لتهدئة الأجواء: ”هل تعرف أنت الذي تحبك أمك حباً جماً أن أم السيد ألبرت هي التي شجعته على الرسم وأدخلته مدرسة الفنون الجميلة في باريس سنة 1894... أما عن شحمك، فلا تبالِ!“

1894: دخل السيد ألبرت مدرسة الفنون الجميلة في باريس وهناك تعرف على هنري ماتيس. وبعد خمس سنوات نُظّم له أول عرض خاص به. وقد اشتهر منذ 1905 فأصبح يعيش عيشاً رغداً بعد أن قضى مدة طويلة في المعاناة من الفقر والعوز. أثناء هذه السنة اشترت الدولة الفرنسية إحدى لوحاته. سنة 1907: أقيم له عرض خاص في براغ وتوفيت أمه في السنة نفسها. 1910: معرض خاص في موسكو... وفي السنة نفسها كذلك، يكتشف شمال أفريقيا بأكملها.

1914: الحرب العالمية الأولى، وقد أُعْفي السيد ألبرت منها لأنه كان أحنف الرجل اليسرى، كما كان أمر صديقه هنري ماتيس، وعندئذ استقر الرسامان في مدينة نيس وشاهدا منها كارثة الحرب. ”هكذا، وقعت الحرب اللعينة علينا. يموت الناس بالملابس ونحن لا نهتمّ إلا للألوان والأشكال“ (من رسالة ماتيس إلى السيد ألبرت). كذلك الحرب العالمية الثانية التي اندلعت سنة 1940 وأوقفت ”الغيستابو“ الألمانية زوجة ماتيس وابنته بتهمة المقاومة

ضد الحكم النازي. واستوطن السيد ألبرت في الجزائر سنة 1927، وكتب رسالة إلى صديقه ماتيس:

> منذ بداية هذه الحرب الثانية القذرة لم أرسم لوحة واحدة. أصبحت عاقراً ولا إنتاج لي... هل تفهم هذا يا هنري؟ أما بيكاسو، فهو أبعد نظراً منّا لأنه التزم سياسياً شؤون العالم منذ البداية، وخاض الرسم بطريقة جهنمية. إنه عبقري يا هنري. لقد انخرط في الحزب الشيوعي منذ البداية وغيّر الرسم رأساً على عقب! ونحن ماذا فعلنا؟ لم نفعل شيئاً. تركنا الحياة تمر وتدهسنا! يا للعار ويا للخسارة! أعلم أن بيكاسو سرق الكثير من تقنياتك وهو يعترف بذلك ويعلنها! أما نحن، فتركنا التاريخ جانباً واشتغلنا بالألوان والأشكال... أصبحنا أنانيين وفقدنا إنسانيتنا! أنا أعيش في الجزائر كملك لا ينقصني شيء. الجزائر جننتني وأبهرتني. لكن لم أعد أرسم منذ بداية هذه الحرب... ولا لوحة واحدة، يا هنري. أقضي أوقاتي في ممارسة الشطرنج مع زوجتي مارسيل وهي تعلمني العربية كذلك، الدروس تدوم ست أو سبع ساعات كل يوم وأنا فرح جدّاً وقد أصبحت أتقنها وهذا مفخرة لي. أصبحت قادراً على الحديث بالعربية مع العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام ومع السيد حسان، وهو من أثرياء القوم ومثقف متميز ويتكلم لغات عدة، ومع ألفريدو، رجل أعمالي، ومع زوجته زهرة وهي موديلي المفضل سابقاً! وقد علمت أخيراً أن كل هؤلاء الأصدقاء قد زج بهم في معسكر لودي! يا للعار! يا للعيب! هكذا منذ وصول بوتاين إلى سدة الحكم، تفجرت العنصرية والأيديولوجية المضادة للسامية وللإسلام. وعلى رأس كل هذا الظلم والتعسف، يوجد شخص اسمه موريس مول وهو كذلك رئيس بلدية وهران... أبقى أنا كالمشدوه... أحمق أنا... لم أرسم لوحة واحدة يا هنري!

اجتاح نظام فيشي الجزائر وبدأت معه عملية الاستئصال ضد اليهود وعددهم 130.000 وغالبيتهم من الأمازيغ، وكذلك ضد المسلمين. قاومت السيدة مارسيل هذه الفاشية التي نالت إعجاب "الأقدام السود" فتبعها زوجها الذي كان يحبها لكنه كان قد تولّه بزهرة نوعاً ما. أدخل هؤلاء الأنذال العم يعقوب والعم أبراهام معسكر لودي حيث كان العم إسماعيل يؤدّي الخدمة العسكرية الإلزامية. وهكذا التقى الأصدقاء الثلاثة وكلهم كانوا يمتهنون حرفة المحاسبة. سنة 1943 انهزمت الفاشية، وقدم الجنرال ديغول إلى عاصمة البلاد، حيث أهداه السيد ألبرت لوحة تمثل أيضاً مسجداً كان مبنياً بالقرب من المسجد الكبير، ألا وهو المسجد الجديد، وكتب إلى صديقه الرسام كاموان: "أرجو أن تتعرف عما قريب إلى المنزل الذي أقطن فيه: دار سيدي السعيد. إنه روعة من الروائع. أنا مسرور رغم عُصابي الذي تَسبّبت الحرب فيه. لكنني أشعر بالراحة في هذا الفردوس، لأن الجزائر بلدي. هنا مكاني، لا حرب

فيه مثل تلك التي تدور رحاها في أوروبا والتي تقززني وتنهك أعْصابي وتصيبني بالغثيان. لقد أصاب بيكاسو حقيقة. رفضت أن أهدي لوحة إلى غورينغ، ذلك السفّاح النازي الذي أصبح منبهراً بأعمالي... هذا للأسف يؤلمني كثيراً''. بعد انهزام ألمانيا، التحق السيد ألبرت بالحزب الشيوعي الجزائري حيث كانت زوجته مسؤولة فيه. وأهدى عدداً كبيراً من اللوحات للمتحف الوطني الجزائري، تلك اللوحات التي... كما رفض أن يرسم بورتريه الباشاغا بن قانة، وهو عميل لفرنسا، بعد أن وصلته طلبية من وزير الداخلية الفرنسي، وكان ذلك يوم 25 يناير 1945، فبعث رسالة إلى صديقه ماتيس: ''أكره هذا الباشاغا الرجعي لأنه إقطاعي كبير ويكره إخواني العرب''، ثم في رسالة أخرى: ''إنّ مجزرة 8 مايو 1945 أحبطتني. أشعر بالذنب وبالخجل من نفسي ومن فرنسا التي اقترفت جريمة مروّعة''. لقي هذا الرسام حتفه يوم 14 يونيو 1947 بعد رسمه لوحته الأخيرة وهي ''الجزائر العاصمة تحت الثلوج''.

في يوم من الأيام، وقد أصبحت مهندساً معمارياً وكهلاً أنيقاً ورجلاً متزوجاً بسيلين، بعث إليّ العم إسماعيل رسالة يقول فيها:

> أنت تعلم عن كثب أن الثورة التي شاركت فيها قد سلبتنا نشوتنا وفرحتنا بالاستقلال كما سُلبت لوحات وإرث السيد ألبرت على يد موظف خبيث ومرتشٍ... لكن لا تنزعج فكل ثورة مآلها الفشل! هذه سنّة التاريخ... وراء هذا الفشل تأتي ثورة أخرى وهكذا دواليك... أما البيروقراطية، فعششت في بلادنا وتحولت إلى مجموعة خبيثة وخاربة وناهبة... لا تكترث! سوف نحارب هذه الآفة كما تفعل وصديقك كمال، فبلّغه السلام.

كانت كلمة ''رشوة'' تؤلمني وترجعني إلى أحد نصوص ابن خلدون: ''وبعد أن وضعت كل حميتي في محاربة وإبادة الرشوة...'' (ابن خلدون، السيرة الذّاتية).

5

أصبحت كهلاً، ومهندساً معمارياً رشيق القامة، ومتزوجاً بسيلين التي لم تبارح البلاد بعدما رسّخت قطيعة تامّة مع عائلتها الإقطاعية التي غادرت إلى فرنسا في 1961، أي سنة قبل الاستقلال. لقد رفضت الإرث الضخم الذي تركه والدها لها بعد وفاته، رغم أنها كانت الابنة الوحيدة له. وهكذا بقيت حريصة على مبادئها، وعنيدة في مواقفها، ومتعصبة لعقيدتها السياسية، فزاد حبي واحترامي لها. بعد وفاة العم إسماعيل أخذتُ مكانه على رأس المجموعة التي أسّسها والعم يعقوب والعم أبراهام و... لاسترجاع الإرث المستلب، أي ورشة ومنزل السيد ألبرت ولوحاته (عشر لوحات تقريباً). الصباح كان ممطراً. رذاذ خفيف يتساقط على المدينة مصحوباً ببعض ومضات تتدرّج حتى بزوغ الشمس بطريقة مباغتة، فتفتت الأحجام البنيوية وتجعل الضوء يقتحم كل الأشياء، والناس خاصة. تبدأ المدينة غليانها واكتظاظها وصخبها وضجيجها فأنظر، وأنا بصحبة صديقي كمال الذي أصبح شريكي في مكتب الهندسة المعمارية الحديثة، في كل أجزاء المدينة وأشكالها المدورة والمثلثة والمستطيلة: قباب المساجد والقصور وزجاج العمارات ناطحات السحاب. الضوء الوهّاج يطفو على كل هذا المجمع المركب من الإسمنت والخرسانة، ثم يأتي ضباب التلوث، وتهور سائقي السيارات، وتصّرفات المارة المعربدين. ومن حين إلى آخر تنفخ الرياح العاتية من جهة البحر فتصفع العمارات المتراصّة كأنها مشبوكة بالدبابيس أو مخيطة بالإبر الغليظة، حاملة جروحها المتعددة ومختلفة الأشكال، وهي الشبابيك والسطوح واللافتات الإشهارية. نخرج، أنا وكمال، من المكتب ونبدأ مسح المدينة التي تبهرنا أحياناً، وتقززنا أحياناً. نخترقها غاضبين ومتأسفين على كل هذه التغيرات التي أدخلت

عليها ويُسمّيها البعض حداثة معمارية. نقتحم تلك العاصمة التي كانت تحفة رائعة متكاملة منسجمة، ومتناسقة المعمار قبل الاستقلال. وبطريقة آلية، نجد أنفسنا أمام العمارة القبيحة التي شيّدها ذلك الموظف الصغير عندما استلب إرث السيد ألبرت. فنمكث غاضبين وثائرين أمام هذا التكدس من الإسمنت. وكلما تجولنا في المدينة، أستعيد مراهقتي وأنا أبحث، بصحبة كمال بطبيعة الحال، عن امرأة تعشقني رغم سمنتي والكآبة التي تطلي وجهي وتغشى جسمي، خاصة لمعرفتي أن كمال يملك عشيقات كثيرات يريد تقديمهن لكن رفضي يأتي صارماً لخوفي أن يضحكن مني ويشتمنني ويعايرنني بالكلمات الخشنة والألفاظ الغليظة. كنت أبحث بجوار الحمامات عن فتيات طيّبات وجميلات ونظيفات فلا أقدر على الكلام معهن بل أكتفي بالمشي وراءهن وهن يعبقن بالعطور الطيبة من مسك وياسمين وعنبر... كنت أتجول هكذا وجيوبي مملوءة بالكتب والمجلات، وأذناي متخمتان بأغاني أم كلثوم وهي تغرد وتقص الذكريات فتبكي الحبيب الراحل، الهارب، وأنا؟ وكمال؟ عندما أختنق من هذا القلق وأضجر به أصيح في كمال قائلاً وقد حركتني الغيرة: "لا يا كمال! وهذا الحذاء؟ من أين أتيت به، قل لي بربك!" فيرد علي: "ما لها ربطتي؟ من الحرير الخام، إياك أن تخطئ... من الحرير الخام... أقول لك وأؤكد لك: من الحرير الخام... أما حذائي، فمستورد من إيطاليا وقد أهدته لي جاكلين! هل...؟" أردّ عليه: "لو كنت أملك عينيك، لفتنت وجلبت كل فتيات العالم... نعم... رغم سمنتي". اسأل السيد مارسيل وستقول لك الشيء نفسه... أنت تظهر كالمهرج... البهلواني... الأحمق... أنت تكره النساء وتحتقرهن، أنت ذكوري.

إن عادات سكان آسيا غريبة جداً. أثناء رحلاتي إلى آسيا أدركت أن رجال هذه المقاطعة، بالوياتي، لا يعرفون الغيرة، ونسب الأطفال يعود ويتم عبر الأم وليس الأب، ولاحظت أيضاً عند أهل بالوياتي أن النساء لا يتحرّجن ولا يحتشمن إزاء الرجال ويخرجن سافرات، مع كونهن مسلمات يقمن الصلوات

الخمس بكل حرص. لإناث هذا البلد الحق في أن يكون لهن أصدقاء وأصحاب وعشاق دون أي مانع. قد يحدث أن يدخل زوج إلى بيته ويجد زوجته بصحبة رجل ولا يزعجه ذلك البتّة، بل على العكس! إنه ملزم استضافة عشيق زوجته وتكريمه (ابن بطوطة. الرحلات).

في يوم من الأيام، قصدت لندن، المدينة التي عاش فيها أخي الأكبر، الغائب الأكبر كما يسميه كمال، المنبوذ والمكروه من أبي. فبدأت منذ اللحظة الأولى البحث على أثر يوصلني إلى منزله السابق أو عيادته السابقة، دون جدوى. كان كمال يرافقني كالعادة. لم نفلح، وعدنا بخفي حنين... أتذكر الأيام التي كنت أغار فيها من كمال: ''ربطتك رديئة يا كمال!'' وهو: ''هي من الحرير الصيني الخام...''. أتذكر. نتذكر وتأخذنا القهقهة الجنونية... كمال! نعيد الكرّة ويتصاعد غيظنا من الشخص الذي سرق إرث السيد ألبرت والمستمر بممارسة الفساد جهاراً ونهاراً. يقول كمال: ''اتركنا من هذا الفاجر!'' فأغير سياق الكلام. أتذكر عندها تجوالنا في قسنطينة حين كنا مراهقين ونقطن فيها. نتجول ونعيد الكرّة. نبحث عن أحد الأزلام الذي كان يدرس معنا في ثانوية La verrière وقد طُرد منها بسبب تصرفاته المجنونة وغياباته الكثيرة، فكان يشغل مناصب لا تليق به خاصة أنّها شحيحة الربح. سميناه ''المؤذن'' لكن لم نعرف أبداً لقبه الحقيقي (ألم يكن من صنف S.N.P، عديم اللقب؟). عندما نعثر عليه، نتجه برفقته فوراً إلى الحانات والمواخير حيث نقضي الليالي الطوال في الزنا والعربدة والشرب تحت قيادة صديقنا وهو معروف جدّاً في هذه الأماكن. فنشرب حتى الثمالة ونضاجع المومسات حتى الغثيان ونبكي معاً ويغتنم صديقنا هذه الفرصة ليلقننا نظريات الإلحاد، هو الذي كان في الماضي يشغل منصب إمام في مسجد صغير فسرعان ما حوّله إلى حانة أو مقهى يمارس فيه لعبة القمار ويملؤه ببنات صغيرات يردن تعلم المسرح والتمثيل تحت رعايته، وقد سقطت إحداهن، في يوم من الأيام، في شباك كمال، فعشقته عشقاً مبيناً ومبيتاً رغم أنه كان يكرهها ويتقزز منها (واش بَاغية مني هذه المخلوقة؟). بعد هذه الليالي الحمراء التي نقضيها في هذه الأماكن المحرمة، نأخذ، أنا وكمال، صديقنا ''المؤذن'' بعد أن أتى عليه النعاس إلى منزلي ليستريح قليلاً ويستعيد وعيه، بعدما سقط في غيبوبة طويلة المدى. تقبل أمي وتقبل زهرة استقبال هذا اللئيم والاهتمام به وتطبيبه حتى لا تتركانه بين أيادي بعض الفئات من الشعب البسيط الذين فوّضوا أنفسهم كفقهاء وعلماء في الدين الإسلامي، وهم

قادرون على الفتك بـ"المؤذن" والكَنش به (من كلمة Lynch وقد عرّف بها قاضٍ أميركي وضع قانوناً يسمح لأي شخص أن يشنق آخر من غير محاكمة). بعد عملية الإنقاذ ينطلق كمال كالسهم ويغادرني بعد أن أعطيه بعض الأوراق النقدية، ليس للمساعدة التي قدمها إليّ بل لتدعيم هذه الصحبة وهذا الحنان الذكوري الذي كنت أكنه له... ينطلق كمال بعد أخذه الأوراق باتجاه منزل جاكلين حاملاً باقة من الزهور الرائعة، وهي، جاكلين، تلك المرأة الخارقة الجمال وزوجة أحد الضباط العاملين في الجيش الفرنسي وقد عاد إلى قواعده (منزله في الجزائر) خاسراً ومغلوباً في معركة دين بيان فو المشهورة (1954) خاصة أنه فقد ساقه اليمنى (أو اليسرى؟ لا أتذكر بالتدقيق)، وخاصّة أنّه أمضى سنوات في سجون فيتنام.

أما "المؤذن"، فالتحق بالمقاومة منذ بداياتها (1956) وأصبح مناضلاً ومحارباً، وترك العربدة والمجون. وعند الاستقلال عاد إلى قسنطينة، فاستاء بسرعة عندما فهم أن الثورة يزنى بها، وأن السّلطة أصبحت محل صراع رهيب بين تيارات، حتى جاء انقلاب 19 يونيو 1965، فأخذ موقفاً شجاعاً ورفض هذا الانقلاب العسكري. زُجّ به في السجن وعذّب ومات تحت التعذيب... قال لي كمال ونحن نحضر جنازة "المؤذن": "طبيعي وعادي جدّاً أن يستغلّ هذه الأزمة السياسية وهذا الفشل الذريع أناس أمثال ذلك البيروقراطي الصغير الذي سلب إرث السيد ألبرت!"

قبل هذا الانقلاب عاودنا الكرّة، أنا وكمال و"المؤذن"، وعدنا نزور الحانات والبارات ليس للعربدة وإنما نكالاً في هذا المجتمع المنافق، ولنستعيد أيام مراهقتنا وصبانا. نزور البارات والمواخير نفسها، فنجدها لم تتغير، عابقة برائحة "البوخة" والماهية والبسباس والسردين المقلي والنشارة التي تغطي الأرضية. كما نسترجع صوت أم كلثوم وهي تغرّد ونحب منها الأغاني التقليدية وقصيدة أبي فراس الحمداني (أراك عَصيّ الدمع، شيمتك الصبر)، وأغاني أديب الدايخ (تقبّلني ونحن صيام؟) وأغاني الشيخ العنقى (هذا عار عليكم يا ناس مكناس). أعيد الكرّة مع كمال وألومه عبثاً ومشاكسة: "ما هذا الحذاء؟ ما هذه الربطة... ليس لك ذوق ولا نوق يا كمال"، فلا يرد عليّ مثلما كان الأمر في صغرنا. يفهم اللغز بسرعة ويعانقني ويقبلني... فأقول لنفسي: "لا زال الزلمي يملك نفس العيون الخلّابة!"

في تلك الفترة، كثيراً ما كان كمال يتركني ليذهب إلى بيت جاكلين أو إحدى العشيقات الأخريات والكثيرات حتى يشفيَ غليله من النساء وفروجهن وقد بات مهووساً هوساً لا مفر منه ولا دواء له. وفي إحدى الأيام، اعترف لي بأنه ضاجع زوجة الحاكم العام الفرنسي عندما أتت في زيارة إلى ثانويتنا سنة 1958 في أوج الحرب التّحريريّة، فعرف قنصها ومارس الجنس معها بطريقة عنيفة، قائلاً:

> نكلة فيهم... لأنها كانت كبيرة السن قبيحة الوجه ومترهلة البطن. أوشكت أن أتقيأ وقد أخذني الغثيان يا أنتَ! أليست الحرب الضروس؟ حقيقة، لقد نكحتها فوق مكتب مدير الثانوية، ذلك الغبي الأبله البيدق الخائن العميل المسكين! فتحولت امرأة الحاكم العام إلى غولة تريد نبش جسدي وبطنها يفيض حواليها وهي تئن وتصرخ كالذئبة الجائعة، فكممت فمها بيدي وكان فرجها بركاناً يسيل منه طفح سخن... لم يتمكن قضيبي من ولوجها كما ينبغي لضخامة شحمتها رغم إرادتي التنكيل بها نكلة في قومها الخبيثين الذين لا يرحمون ولا يشفقون وقد حاولوا إبادتنا، لكن... دخلنا معه في حرب ضروس... هل أنت معي؟ هل توافق؟ أعلم أنك لا تصدقني لكن هذه هي الحقيقة. وقعت الطامة يا صديقي. سبلت نفسي وأعطيت أيري قرباناً للمستعمر الخبيث. جُنّ جنوني. وإلى هذا الحين لم أفهم كيف قمت بهذه العملية الفدائية. ممارسة النكاح مع تلك المرأة، أو البقرة، للانتقام فقط! الانتقام! إنهم يغتصبون نساءنا ونحن نقهر نساءهم، أحببتَ أم كرهتَ. لم تكن هذه المرأة تملك فرجاً وإنما مضيق "خراطة" الجبلي. يمكنك الاستمرار في الضحك. تسخر منّي؟ اضحك! قهقه يا ولد لكن فعلتها. قمت بواجبي الوطني أردتَ أم كرهتَ. هل أقززك؟ آه.

أما "المؤذن"، الذي عذبته الشرطة العسكرية بهمجية بعد الانقلاب العسكري (19 يونيو 1965)، فأصبح متأثراً بعطب بالغ (ألم يلقَ حتفه؟)، وسكر حتى الثمالة. يقول ويكرر (ولعله توفّي تحت التعذيب؟ تخونني ذاكرتي فلا أتذكر!)، إنه يريد أن يدفع الفاتورة: "أنا لنخلص! أنا لنخلص"، رغم أنه لم يكن يحمل في جيبه فلساً واحداً، فهو لم يعثر على عمل بعد خروجه من السجن لأنه سُجّل في قائمة سوداء تمنعه من العمل... وصوت أم كلثوم (الرباعيات الخيّامية) يضرم فينا ناراً لهّابة، وغناء الشيخ العنقى وهي يبكي على هزيمة عسكرية في مكناس بالمغرب الأقصى في القرن الثامن عشر: "هذا عار عليكم يا رجال مكناس"، وصدف الحلزون الذي أكلناه يرسل صريراً كلما تحركت أقدامنا. كذلك: "الكونسيرتو رقم 1 لرخمانينوف وهو يئن وجعاً وألماً"، وكذلك: "تقبّلني ونحم صيامُ!"

أتذكر مرة أخرى أخي اللوطي الغائب غياباً أبديّاً. أدفع ثمن كل الفاتورة. ألست ابن رجل ثري يجول حول العالم ويتاجر في كل قاراته ويرسل من كل بلد يزوره بطاقة بريديّة لا يكتب عليها شيئاً، ولا حتى كلمة طيبة أو حميمية أو تعبيراً واضحاً عن الحنان والحب والاحترام. بل يكتب التاريخ واسم المكان فقط ويمضي بإمضائه مستعملاً لذلك طابعاً حبرياً فيأتي اسمه مخططاً بطريقة رائعة: ''البندقية 42/12/12. حسان''. ألست مع صديقي كمال، وهو من أشهر المُهندسين المعماريين في البلاد؟ أدفع الأوراق النقدية وأُقهقه وأسكر برفقة صديقيّ فيغتنم النادل الفرصة ويملأ كؤوسنا مرة أخرى بعرق محلّي (البوخة)، وعندما يطل الصباح على الحانة، أتوقف عن الشرب، وكمال كذلك يتوقف. أما ''المؤذن''، فيرفض ويتعنت تعنت المدمنين المجروحين المتألّمين. نأخذه، أنا وكمال، ونحمله على ظهورنا نحو السيارة المتوقفة أمام الحانة، فيشتمنا ويضربنا ونحن سكارى، نقهقه و... نبكي دموعاً غزيرة وحارة. نبكي على هذه الحياة المرّة وفشل الثورة وأخي ''الغائب'' والوطن المؤزّم. ونحن في طريق العودة إلى ديارنا، يقول ''المُؤذن'' متلعثماً: ''أبوك زار البندقية في الأربعينيات... أليس كذلك؟ هل زرت البندقية؟ وأنت يا كمال هل ما زلت تمارس الجنس مع جاكلين وقد شاخت وأصابتها السمنة وأصبحت قبيحة؟ وما مصير زوجها؟ أما أنت يا راك، فاذهب واختفِ بين أحضان سيلين!'' ثم يأخذ بالغناء بصوت رائع: ''اللي مكتوب على الجبين لازم تشُوفُو العين. آه يا قمري القمري. اذهب والتحق بأبيك المسفار. هل تعلم أين توجد البندقية؟ هل زرت البندقية؟ خليك يا راجل. وإذا جاء الليل فأنتم قمري''، ثم أترك كمال أمام بيته وأحمل ''المؤذن'' (وزنه لا يتعدى 50 كغم) على ظهري وأدخله إلى منزلي، فتأتي سيلين وتساعدني على نقله إلى إحدى الغرف حتى ينام قليلاً وهو يكرر: ''وإذا جن ليلي فأنتم قمري... فأنتم قمري يا سيلين''، ثم يبدأ يهذي ويهدر على فشل الثورة ويعاود الكرة: ''هل زرت البندقية؟ هل زرت البندقية؟''

البندقية
17/07/1937
حسّان

كنا، أنا وكمال، نتردد إلى قسنطينة فقط للتجول والاستمتاع بمناخها

الرائع ومنظرها الجميل وبنيانها الهجين المكوّن من مدارس وحضارات عدّة، هي المبنيّة فوق هاوية وادي الرمال، ولقضاء بعض السهرات في تلك الحانة الشعبيّة التي عرفناها منذ المراهقة لاسترجاع متعة تلك اللحظات المفعمة حنيناً... نريد استعادة شبابنا وتذكر حماستنا أثناء حرب التحرير. كذلك كنا نعود إليها للقاء "المؤذن" أروع أصدقائنا وأطيبهم وأذكاهم وأفقرهم وألحدهم وأشرفهم وأتعسهم، فأنسى كلما قرعت "القرعة" في تلك الحانة أخي الغائب المنسي الملغى من ذلك الأب الغريب الأطوار والكثير التناقض. أريد أيضاً نسيان قضية سلب منزل السيد ألبرت، جنان سيدي السعيد، ولوحاته الرائعة، وعلى وجه الخصوص لا بد من نسيان عذاب السمنة الذي آلمني في المراهقة. الآن، وقد توفّي العم إسماعيل ومات العم يعقوب منذ دهر وغاب العم أبراهام عن الوجود، أمسكنا، أنا وكمال، زمام الأمور مصمّمين على فضح المرتشي ورفع قضية ضده. لكن... يقول كمال:" اتركه لحاله، فهو مسكين ومغبون، يحمل عبء ابنته (أو زوجته) الثقيل وهي معوقة عوقاً رهيباً". أصمت أمام هذه الحجة القاطعة. لكن!

عندما أصبحت كهلاً أنيقاً ورشيقاً ومهندساً معمارياً فاشلاً، لكون الزبائن يرفضون تصميماتي، رفضت التخلص من البطاقات البريدية التي كدستها في غرفتي واحتفظت بها إلى يومنا. يلومني كمال: "اترك هذه الذكريات الرهيبة وهذه البطاقات الباردة وانسَ حتى مراهقتك وحتى أخاك العطّاي! كفانا هموماً. كفانا غيظاً. اتركنا نعش قليلاً، رويداً رويداً. كل نهار بنهاره!" لم أترك البطاقات وهوسها. زرت كل الأماكن التي زارها أبي، وقد توفّي منذ عشرين سنة، مدينة مدينة. زرت البندقية، وأكثر من هذا: أمضيت فيها سنة كاملة بعد أن حصلت على منحة للدراسة فيها، ورافقني كمال بطبيعة الحال! فاقتسمت المنحة معه وأذهلنا جمال المدينة. كذلك، رفضت أن أمحي من ذاكرتي تلك العوامل الغامضة والمرتبكة، فأحاول تركيبها بطريقة موضوعية دقيقة، دون جدوى! ذكرياتي مع العم إسماعيل لا تزال تطفو في

مخيّلتي وتتأجّج حتى البكاء والعويل والصراخ. أتذكر العمة فاطمة وذلك اليوم المشؤوم الذي دهسها فيها "الترامواي". أتذكر زهرة وقد انقطعت أخبارها. أتذكر كذلك كل شعائر جنازة أمي. تتهاطل على هذه الذكريات حتى أشكك في وجودها، أتساءل: هل أنا إنسان مولع بالكذب؟ هل أحاول تجميل كلّ ما عشته وتغييره رأساً على عقب؟ هل أنا معتوه، مجنون، مريض؟ أمّا في التاريخ، فلا أنسى أبداً: الزنج والقرامطة وقد أُزهقت دماؤهم وعذبوا تعذيباً رهيباً وسادياً واغتصبوا غصْباً وأُدخلوا في الدّين الإسلامي كراهية وعنوة، فأُجبروا على المشي فوق الجمر وحبوب الزجاج وقد أضرم الأئمة المتعصّبون النار فيهم حتى احمر نهرا دجلة والفرات من دمائهم البريئة. كذلك، لم أنسَ أبداً معركة دين بيان فو التي حدثت في مايو 1954، والتي في ظني كانت سبباً من أسباب اندلاع حرب التحرير الجزائرية بعد ستة أشهر بالضبط من الهزيمة الفرنسية، في نوفمبر 1954. أما فيالق البيض، فكانت تنتشي وهي تشهد هذه العقوبات الجهنمية المسلطة على الزنج والقرامطة إثر فشل ثوراتهم. أُعدموا بطريقة همجيّة حيث أشعل الجنود المرتزقة النيران في كوانين ضخمة مملوءة جمراً وملحاً ولبَاناً عربيّاً، فتنتشر رائحة جلد البشر المحروق بين نهرين وتأتي الحيتان لتلحس تلك الدماء الطاهرة الزكية. الغوغاء. الألوان. الصّخب. الوتيرة. الجنون. الجنون الإنساني الذي يوزعه الغلاة بين الاختلال العقلي والدقة الهندسية التي يمتلكها المسلمون المتعصبون وقد أشبعهم الجهل والفساد، في تلك الفترة من العصر الذهبي...

6

حطّ الليل. بدأت السماء تكتسي بالكحليّ. بدت الأجواء شبقية للغاية. اشتعل خط الأفق المحمرّ، ثم انطفأ بسرعة... إصبع من النور. ثم العدم. اللاشيء... خاصة أن الشمس مكثت طوال النهار على الحائط المقابل حتى بدأت تتفتّت داخل التوتة الضّخمة التي تمنحني شعوراً غريباً! إذ تلخّص هذه التوتة العتيقة كل العالم الكوني، رغم أنه، بالنسبة لي، تبقى هذه الشجرة مخبأً للعصافير الكثيرة التي تغزو فضاء الغروب. ثم بعد دقائق يتصدّع الماضي ويتشقق كحال أحد الأغصان الذي تآكلته العوامل الطبيعية من برد وقرّ ومطر وجفاف، خاصة أن الدود قضمه بوابل من الرقاقات القذرة والرخوة في آن. وقد بدأت بعض أغصان هذه التوتة، الأسطورية لدى أفراد العائلة، خاصة زهرة، تتعفّن شيئاً فشيئاً بمجيء فصل الشتاء، وقد كانت قبلُ، في فصل الصيف، مزدهرة فضفاضة مملوءة بحبات التوت كبيرة الحجم وبنفسجية اللّون. لم تعد الشجرة تكفّ عن النموّ اللامتناهي واللّامحدود. استمر الليل في هيجانه... وفجأة ظهرت سيلين على عتبة الغرفة. ها هي هنا! واقفة صامتة ساكنة عنيدة حَرِدة. أما أنا، فمبهور!

حلّق طائر جاء من بعيد كأنّه مبهور أيضاً، بحركاته الأنيقة وقد أثملته حريته، يريد نطح السماء السوداء المزرقّة. أجنحته شبه مخضبة باللون الأخضر النيلي، وفيه قليل من اللون الرمادي كذلك. يبدو كأنّه معلّق على صفيحة السماء وقاعدة الأجواء. قطرات من الموسيقا، الكونشيرتو رقم 3 لرخمانينوف الذي ما كان يفارق أخي، ويشاع عنه أنه أحسن عزفه على آلة البيانو، لكن كل ذلك هو ادعاءات من العائلة وولعاً بالكذب الذي كانت تعاني منه زهرة. هذا الأخ الغائب واللّوطي، الذي بحثت عنه في الكثير من المدن: لندن، هامبورغ، مدريد، باريس... باريس حيث قضيت أشهر في زيارتها متردداً على متاحفها الرائعة بحثاً عن

لوحات السيد ألبرت، تائهاً في متاهاتها ومتاهات ”المترو“، قارئاً معلّقاته الإشهارية: AIGUISEZ VOS INSTINCTS DE GAULOIS. SAUPIQUET C’EST PIQUANT. وقد أذهلنا في يوم من أيام الدراسة الثانوية أستاذ التاريخ، فرنسي الأصل، عندما قال: “VOS ANCETRES LES GAULOIS”، فابتسمتُ وابتسم كمال وتغامزنا. كذلك الحال لأسماء الأنهار الفرنسية. يهمس كمال في أذني: ”ما لي أنا ونهر السين ونهر الرون ونهر الغارون ?Le Mont Gerbier des Jones. ما هذا الاسم الطويل والقبيح. أنا لا أعرف إلا نهر الرمال ونهر السيبوز ونهر الصومام ونهر الشلف ونهر الساورة... قل لي يا فلان، ألم يُهدِ هارون الرشيد أول ساعة مائية عرفها شارل ماني؟“ قلت: ”وأهداه كذلك فيلاً أبيض وصغير السن!“ كان كمال غاضباً وهو يسمع هذه الدروس الغريبة عنا. كنت أخاف غضبه وطفراته الوطنية، فيصرخ في وجهي أحياناً: ”أنت خائن. أنت تشاركهم خبثهم. أليس كذلك؟ اعترف. أنت من مناصريهم؟ AIGUISEZ VOS INSTINCTS DE GAULOIS… AIGUISEZ VOS INSTINCTS“.

أتذكر كيف انهزم المغول على يد الفندال سنة 438 ميلادية، فغزوا قرطاج وسردينيا وصقلية وكورسيك والبلايار، وكانوا يكوّنون جيشاً عرمرماً بخمسين ألف جندي SAUPIQUET C’EST PIQUANT.

أما سيلين، فأعلم أنّها تريد قراءة علاقتي مع زهرة، نصف أختي، وتفسير العنف الموجود بيننا. وهو مجرد طريقة للتعبير عن الحنان الذي يربطنا منذ سنوات. لماذا تهتم سيلين بكل هذه التراكمات التي تستنتجها دون قصد مع أفراد العائلة؟ كل هذه الأمور (العم إسماعيل والعم أبراهام ومعسكر لودي والعم يعقوب تمسيت من العنصر الأمازيغي الذي اعتنق اليهودية قبل الفتح على يد عقبة سنة 210 هجرية...). هل الحديث عن أخي الغائب سيجديها نفعاً؟ حاولت أن أفهم، ككل الناس، عفويتي وعصابيتي وخيبتي بعد الاستقلال والسنوات التي قضيتها في السجن بعد الانقلاب العسكري (1965). هي تعلم كل هذه الأمور... لماذا وهي واقفة هكذا على حافة الأيام.

فجأة شعرت، وقد عمّ الظلام الكون، بوجود شخص ما. فهمت حدساً أنها سيلين. قالت بصوت هادئ: ”لقد تزوجنا منذ أكثر من عشرين سنة، راك! أريد أن أتعرف إلى أبيك قبل وفاته، لماذا أنت خائف؟ أريد أن ألتقي هذا الرجل العبقري الغريب الأطوار. أنت معجب به رغم كل ما تقوله عنه من سلبيات“. انفجرت ضاحكاً. كنت متوتراً. هل أنا خائف؟ لم أرد عليها لأنّني أعرف أنّها تريد ولوج هذا المستنقع العائلي لتتعرف إلى ما أدى بي إلى السمنة عندما كنت مراهقاً. لماذا هذه الأسئلة وقد أصبحت إنساناً عادياً، مجرد مهندس معماري يمارس الرياضة مع زميله كمال.

مذكرات السيدة مارسيل

كان يهود الجزائر، هؤلاء الذين انقضّت عليهم الفاشية والنازية من سنة 1940 إلى 1942، من أصل أمازيغي خام أو أندلسي. أتوا من هناك بعد هزيمة المسلمين وسقوط غرناطة سنة 1492 ميلادية وسنة 800 هجرية. وقد تهوّدوا قبل الفتوحات الإسلامية، وأرادت فئة من ”الأقدام السود“ التخلص منهم وقهرهم وتدمير كيانهم الديني والعرقي. لم تخضع غالبية يهود الجزائر لـ”قانون كريمو“ الذي منحهم الجنسية الفرنسي نهاية القرن التاسع عشر. ولم يستغل هذه الفرصة غير قلّة من المثقفين والأغنياء، أمّا غالبية هذه الجالية (عددهم 130.000)، فبقيت جزائرية وموجودة خاصة في الصحراء وأحياء المدن الكبرى، قسنطينة على وجه الخصوص، وتشتغل في الصناعات التقليدية. اقترفت الفاشية الأوروبية جرائم كثيرة ضد هذه الأقلية، فهلك مئات الأشخاص ونفي الكثير منهم وطردوا من سلك التعليم والإدارة العامة الفرنسية. كما زُجّ بالآلاف منهم في معسكرات موزعة على كامل القطر. وفي تلك المدة، عُرضت الجنسية الفرنسية على الجزائريين المسلمين شريطة أن يكونوا قد أدّوا الخدمة العسكرية نكالاً في اليهود. هكذا، دمرت منازل هؤلاء وارتُكبت مجازر كثيرة ضدهم. كان رد المسلمين جماعياً ومثالياً، فأدخلوهم ديارهم

واعتنوا بهم، ومثال ذلك: الموقف النبيل الذي اتخذه مدير مسجد باريس، الشيخ محمد بلغبريت، الذي أخفى 1700 يهودي في قبو المسجد الذي كان يشرف عليه، منذ غزو الجيش الألماني العاصمة الفرنسية حتى هزيمة النازية سنة 1945. وقد أُجبر يهود الجزائر على حمل النجمة الصفراء. وأُلقي القبض في تلك المدة على العم يعقوب والعم أبراهام (سرفاتي). كما ألقي القبض على العم إسماعيل لأنه بصق في وجه أحد المعماريين بعد أن ضرب أحد اليهود وأراد قتله. وفي الوقت نفسه، نُفي صديقاه في معسكر لودي حيث وصل العم إسماعيل لأداء الخدمة العسكرية، هكذا التقى الأصدقاء الثلاثةُ فنشأت بينهم صداقة كبيرة ومحبة أبدية. كان هذا من باب المصادفة الغريبة. قرر الجميع، بعد بضعة أسابيع من وصولهم، الانضمام إلى الحزب الشيوعي الجزائري. وهنا وصلتهم أخبار عدة: غلق الكنيسة اليهودية التابعة لحي القصبة (الجزائر العاصمة)، نفي الحاخام (الرّبي) بن خيم تمسيت وهو أبو العم يعقوب. أقام الأصدقاء الثلاثة في هذا المعسكر لسنتين. أثناء هذه الإقامة الجبرية نفّذ "الأقدام السود" عمليات عنف رهيبة ضد الجالية اليهودية في قسنطينة بمساعدة بعض المسلمين المرتشين، فحُرق الكنيس اليهودي الكبير فيها، وحُرق الحاخام ابن موسى وهو يصلي الشّبات. كما طُرد الأطفال اليهود من المدارس، وشُيّد ثلاثون معسكراً على مستوى القطر: لودي، بوغاري الجلفة، تمنراست (في الصحراء الجزائرية على الحدود مع مالي). ازداد عنف المتطرفين الأوروبيين وتضاعف غيظهم، وكان على رأسهم رئيس بلدية وهران أندريه مول ودورلان وجيرو... والأب لامبير. والأخير هو الأكثر تشدداً خاصة أن الكثير من "الأقدام السود" الفقراء كانوا يعبدونه ويُناصروه.

أثناء تلك المرحلة السوداء، أصاب زوجي، ألبرت، عصاب شديد المفعول، فتوقف عن الرسم خمس سنوات (1940–1945)، وصار يتقزز من الفاشيين والمسؤولين الفرنسيين، وبدأ يهتم بالأفكار الشيوعية فيقرأ صحيفة *L'HUMANITÉ* وهي تصدر سراً، ويطرح الكثير من الأسئلة حول هذه النظرية، ويزور أصدقاءه اليهود المسجونين في معسكر لودي. وفي رسالة إلى صديقه هنري ماتيس، نبه زوجي إلى تصرفات الرسامين ديريان وفلامنك ودونوير وفريسيه لأنهم كانوا يساندون النازية ويتعاطفون معها، وقد عرضوا أعمالهم في العاصمة الألمانية برلين (يونيو 1942). وكتب: ”إن هؤلاء الرسامين جبناء! كلهم خونة، خانوا الإنسانية بأسرها!“ لكن لما علم زوجي بتطبيق حكم الإعدام على النحّات مايول سنة 1944 من المقاومة الفرنسية، قال: ”غاظني هذا النّحات الكبير ولكن... هذه الحرب، سوف تنتهي في يوم من الأيام وهي مغامرة جنونية لأن خرافة حب الوطن تحتاج إلى دم أكثر ودمار أكثر. أكره الحروب خاصة أن الآلهة تطالب دائماً بدماء أكثر وتحب القتل والتقتيل!“ عشنا، أنا وزوجي، أثناء هذه الحرب العالمية الكريهة والمفزعة، في مدينة بجاية. استقبلتنا عائلة لالّا خديجة، زوجة العم إسماعيل، بكثير من الحفاوة والسخاء والكرم والكرامة والشهامة! هكذا، تمكنّا من تحاشي أجواء الجزائر العاصمة الخانقة أثناء تلك الأوقات اللعينة.

7

تظهر لي قسنطينة وأنا أشاهدها من إحدى النوافذ الداخلية للثانوية، حيث سأقضي سبع سنوات طويلة ومقلقة مصحوباً بالأرق الذي لازمني منذ الطفولة. أرى القصبة فتظهر لي كأنها هشة، رخوة، طرية، مهزوزة. قسنطينة كنت أعرفها جيداً من دروس السيد روبن، أستاذي في التاريخ، وهو من محبي الثورة الوطنية وكذلك الاستقلال المنتظر، كنا نحبه حباً جماً ونكنّ له احتراماً كبيراً. هو اختصاصيّ في التاريخ البيزنطي والروماني والوندالي كذلك! وقد أخذنا في أحد الأيام لزيارة المقبرة الفندالية الموجودة بالقرب من مدينة عنابة وكاتدرائية القديس أوغسطينوس، قائلاً: ”هذا تراثكم يا أولاد! لا تنسوا تراثكم! والفندال الذين غزو فرنسا هم أنفسهم الفندال الذين غزو الجزائر. لا تنسوا ذلك يا أطفال!“ وفق معلومات السيد روبن، عرفت قسنطينة في البداية تحت اسمها القرطاجي (*Marim Batim*)، ثم عرفت باسمها الروماني، عاصمة الملوك النومديين باسم *Cirta Giturquarto Denique Die Haud Longe Ab Appido cirta*، ثم صارت مستعمرة رومانية. وبعد أن أحرقها كلياً سكانها الثائرون على الملوكية النوميدية، أعاد الملك قسطنطين بناءها فسميت باسمه. ولقد فتحها الفندال مرّات عدة. أصبحت قسنطينة عاصمة لعدد من ملوك المسلمين بداية من القرن الأول الهجري، فبعد الغزو الفرنسي سنة 1836 صارت مقر البيلك المستقل، وهاجمها سنة 1836 الجنرال كلوزيل ففشل في محاولته، ثم غزاها الجنرال فالي سنة 1846، فاحتلها حتى اندلاع الثورة المسلحة سنة 1954. أما البنية العامة التي تسيطر على عماراتها منذ آلاف السنين، فتجعل الزائر في حالة ارتباك، ذلك أنها مكونة ومركّبة من أحياء متداخلة يدور مركزها حول نهر الرمال، وقد

شيدت عليه أربع قناطر تعطي للمشاة دوراناً رهيباً من كثرة علوها. وهي مشيدة فوق أطلال رومانية الأصل بعد أن كانت قاعدة حربية بونية (قرطاجية) ثم رومانية ثم إسلامية عربية. إنها تصلح أيضاً كمعبر قائم بين الجبلين الشامخين اللذين يحيطانها شرقاً وغرباً.

قسنطينة كأنها مائلة ومائجة. قسنطينة بسطحوها القرميدية كأنها سلاحف ضخمة بألوانها الحمراء والوردية والبرتقالية والقرمزية والرمّانية وحتى الخزامية! مدينة متوسطية رغم بعدها عن البحر، بأثوابها المزركشة والأشكال المعلقة في السطوح العالية التي تتوارى بسرعة البرق في فصل الصيف الحار والشتاء القارس، حيث تتساقط عادة الثلوج بكثرة. مدينة كاريكاتورية. إشارات غوغائية. ومضات ضوئية. فلاشات باهرة. وهي تتدرج على ثلاثة وأربعة وحتى خمسة مستويات. الأول وعر التحدر. رقيقة مهشمة إهليليجية على المستوى الثاني والثالث. ذائبة فاترة ضبابية على المستويين الرابع والخامس، ثم صفوف القبب الملاصقة للجروف الجبلية الشهباء البنية. كذلك الأراضي الزراعية المخضرّة تتحول إلى ألوان صلصالية ثم صفراء ثم مستصفرة، عند الجفاف، كأنها تكوّن وحدها نوعاً من فسيفاء متداخلة الألوان.

لكن الألوان تتبدل وتمّحي فوراً عند غروب الشمس حيث تفقد المدينة عنفها وتكتسي طبقة رقيقة لطيفة وديعة. في هذه المدينة، توجد الثانوية التي درست فيها لسنوات. وهي لا تستقبل إلا الجزائريين من أصل مسلم، وقد أطلق عليها المستعمرون "الثانوية الفرنكو-إسلامية" (لعل سبب هذه التسمية أن الفقه الإسلامي يدرس كمادة أساسية وكذلك اللغة العربية، وكل المواد الأخرى كانت تُدرّس بالعربية والفرنسيّة، خاصة أن الأخيرة لا تُدرّس في الثانويات الأخرى؟). كذلك تحتوي هذه المدينة على بيت العائلة، ومربط الخيل الذي تُربّى الخيول العربية الأصيلة فيه، وهو ملك الأب، ويحتوي على طابق علوي يسكنه عَلي، القائم على شؤون المكان وتربية وتدريب الأحصنة الرائعة، منها سلالة انبهار التي... أما أنا، فشُغفت بالخيل عندما أخذني العم إسماعيل في أحد الأيام إلى ميدان سباق الخيل، وشهدت هناك ما

أذهلني من جمال الخيول وسرعتها الفائقة وقدرات الفرسان على التحكم بها. وكانت مهرتنا انبهار هي من تتسابق وقد امتطاها عليّ. إنها مهرة الأصدقاء الأربعة.

كان منزل العائلة يعبق برائحة نافذة ونفاثة هي في الوقت نفسه رائحة لطيفة ورائقة: أقمشة قديمة رثّة ونتنة أو جديدة وحديثة كانت أمّي تشرف على الحفاظ عليها وخياطتها في غرفة الخياطة حيث... كما كان البيت يعبق برائحة المشمش المجفّف في خابيات طينية المادة ووردية اللون، فيستعمل هذا المشمش في طهي المأكولات اللذيذة للمناسبات الكبيرة فقط. كذلك رائحة الكريب الصيني وخياطته وهي من مسؤولية زهرة المحبة لهذا النسيج كثيراً. رائحة فائحة ومخنقة. كأن كل هذه التقاليد القديمة، الخاصة بالخياطة وبالطبخ، دائمة الحضور في منزل العائلة، وتغذي حنين زهرة لهذه الأماكن رائعة الهندسة، وهي مزيج من الطراز البربري والأندلسي والعثماني والفرنسي.

إن ألبرت ماركيه هو الرسام الكبير الذي أحب الجزائر وعشقها، وتزوج بإحدى نسائها، وعاش فيها قرابة ربع قرن (25 سنة). وُلد هذا الرسام الفذّ سنة 1875 في بوردو الفرنسية، لعائلة بسيطة. كان أبوه عاملاً في شركة الخطوط الحديدية. درس الابتدائية والثانوية هناك. لكنه كان تلميذاً رديئاً وطفلاً شغوفاً بالرسم، قصير القامة، أعور العين اليسرى، وأعرج القدم اليمنى. كانت أمّه تشجع موهبته، وقررت أخذه إلى باريس ليتتلمذ في المعهد العالي للفنون الجميلة. أما أبوه، فرفض ذلك ومكث في مدينته الأصلية. سكنت الأم في شقة موجودة في 38 شارع مونج، كما فتحت السيدة ماركيه حانوتاً صغيراً تخيطُ فيه وتبيع الأقمشة المطرزة. وهكذا تعرف السيد ألبرت على هنري ماتيس الذي كان يكبره بست سنوات، وصار صديقه المفضل مدى الحياة. كذلك تعرّف إلى رووه، منكن، كاموان، وغيرهم من الرسامين الكبار، وذلك في الورشة التي كان يسيّرها غوستاف دوريه.

سنة 1899 عرض الرسام لوحاته لأول مرة في "صالون مايو". في 1902 عرض أعماله بصحبة ماتيس في رواق Berthe Weill، وفي 1904–1905 كان يعرض أعماله في صالون "المستقلين". هنا تفجّر فنّه خاصة بعدما اشترت الدولة الفرنسية لأول مرّة لوحته "Les Arbres à Billancourt"، فاشترى آنذاك ورشة واسعة.

25 رصيف Grands Augustins الذي سوف يشغله بابلو بيكاسو في ما بعد، أي أثناء الحرب العالمية الثانية. 1912: يكتشف شمال أفريقيا، المغرب (يزور أثناء هذه الرحلة مدن تطوان وفاس وطنجة على وجه الخصوص). 19 يناير 1920: وصول الرسام إلى الجزائر العاصمة، فيبهر فيها منذ الوهلة الأولى. مكان السكن: Royal Hôtel المقابل لميناء المدينة. بعد ذلك يتوجه ألبرت ماركيه إلى الصحراء، يزور بوسعادة وغرداية وتفورت، ثم يكتشف مدن شمالية تطل كلّها على البحر: وهران وبجاية وعنابة والجزائر العاصمة.

10 فبراير 1923: يتعرف إلى مارسيل مارتينيه الجزائرية من أصل أوروبي، شيوعيّة الميول، وعضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الجزائري (PCA).

10 فبراير 1923: زواجه بمارسيل مارتينيه في الجزائر العاصمة. يقيم الزوجان في فيلا في ضواحي المدينة "الأبيار". "إنني أشعر بالانتعاش فيصيبني الدوار في هذه المدينة الرائعة" (مراسلة مع ماتيس بتاريخ 14 نوفمبر 1932).

تتوالى اللوحات: "الإمبريال 1923"، "الرقص 1923"، "القصبة"، "نساء جزائريات"... يشعر بسعادة تامّة بحبه لزوجته ورسمه لوحاته. سنة 1923 تكتشف الولايات المتحدة الجزائر من لوحات ألبرت ماركيه المعروضة في متحف من أكبر متاحف نيويورك (متحف Guggenheim).

كان أبي الذي حارب العنصرية ضد اليهود وطنياً غيوراً ومواطناً مشاكساً للحكم الكولونيالي، وزجّ به في السجن مرّات عدة. كان قد رفض منذ البداية "قانون كريمو" وقال لأصدقائه: "العنصرية ضد اليهود لم تبدأ سنة 1940 بل قبل ذلك بكثير، ومنذ صدر قانون كريمو سنة 1875، هاج البنّاؤون الفرنسيون واغتاظوا من ذلك، وبدؤوا يضطهدون اليهود، وهم إخوان لنا في المواطنة وحب هذا الوطن، خاصة أنهم من أهل الكتاب!" زار وساعد كل اليهود الذين كان يعرفهم. كما كان يزور السيد ألبرت في مستشفى Maillot (اسم أحد الغزاة الفرنسيين وكذلك اسم أحد الشيوعيين من أصل أوروبي شارك في المقاومة الوطنية وقد هرّب كمية ضخمة من السلاح عندما كان في الخدمة العسكرية) عندما أصابه سرطان المرارة. تُوفّي الرسام سنة 1947 في عيادة فرنسية. وحضر أبي جنازة صديقه، كما فعل

ذلك العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام. بعد سبع سنوات من وفاة السيد ألبرت، اندلعت حرب التحرير الجزائرية في 1 نوفمبر 1954 (بضعة أشهر بعد سقوط دين بيان فو في مايو 1954)، وكان أبي يصيح فيّ: ”ليس من باب المصادفة أبداً أن تندلع الحرب عندنا بعد بضعة أشهر من سقوط دين بيان فو. لا، أبداً. العلاقة بين هذين العاملين جدلية وتاريخية. تفطّن يا ولد: التاريخ لا يرحم!“

بغداد

12/12/1948

حسان

بغداد! بغداد! التي تحوّلت إلى حقل من الركام والخراب والدمار بعد الاجتياح الأميركي لها. الموت في كلّ مكان. الجرذان اجتاحت أرجاءها. متاحفها سُلبت على أيدي الجنود الذين نهبوا أثمن ما فيها من آثار تعود إلى آلاف السنين، ومن بينها منمنمات الواسطي. كان أبي يملك نسخة من المنمنمة التي عنونها بنفسه وبكل بساطة: ”معركة الزقاق“، وقد أهداها بعد إلى أخيه، العم إسماعيل، الذي علقها على أحد جدران صالون ديوان المحاسبة. اشترى أبي هذه النسخة من اللوحة الصغيرة من سوق الخردوات ببغداد حين زارها أول مرة في الأربعينيات. صَارَحني العم إسماعيل يوماً بأن هذه المنمنمة ليست إلا نسخة! فاستأت من ذلك وكنت قد بنيت استهيامات كثيرة حول هذه التحفة وبُهرت بها، وفي النهاية تكون نسخة! قال لنا الأب ونحن أطفال سذّج: ”هذه النسخة ثمينة يا أولاد! حاذروا أن تخطئوا! ذلك أن الواسطي كان يرسم نسخاً عدة انطلاقاً من النسخة الأصلية... حذارِ! هذا الرسام الفذ كان يحتاج ربح أموال كثيرة لمساعدة ثورة الزنج (255 هجرية) التي شنها العبيد السود الأسرى عند الدولة الإسلامية في أوجها. وقد جيء بهم من أصقاع

أفريقيا. كما حثّ الواسطي من خلَفَه على الاستمرار في هذا التقليد. فوزع أولاده وأحفاده في ما بعد أموالاً طائلة على محمد بن علي، زعيم ثورة القرامطة، سنة 275 هجرية. هل تعلمون، يا أطفال، أن القرامطة أسسوا أول جمهورية شيوعية ومسلمة؟ دامت دولتهم قرناً ونصف. هل تعرفون أن محمد بن علي قائدهم كان من العرق الأبيض؟"

قيل أن أبي، وفق الإشاعة، قد تزوج في تلك المدة بقمر، وهي طفلة من أصل عثماني من مدينة عنابة، صغيرة لم يأتها الحيض بعد. لكنه لم يفترع بكارتها ليلة الزفاف كما تنصّ العادة والشريعة، فبات في أحضان قمر ورائحتها وعرقها، رغم الشبق الرهيب الذي ينضح به جسد الصبيّة العنابية. لم يفترع حسان بكارة زوجته الصغيرة، بل قضى ليلته في قراءة نصوص لابن عربي:

> إن ما بين القلم واللّوح نكاح معنوي معقول، وأثر حسّي مشهود. ومن هنا، كان العمل عندنا (المتصوفون)، وكان ما أودع في اللوح من الأثير مثل الماء المتدّفق الحاصل في رحم الأنثى. وما ظهر من تلك الكتابة (مجموعة الكلمات؟ تجمّعها؟) من المعنوي في تلك الحروف الجُرميّة (هو) بمنزلة أرواح الأطفال المودعة في أجسادهم. فافهم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. (ابن عربي. **الفتوحات المكّية**)

... بينما كانت العروس تغوص في نوم عميق وهادئ.

كما كان الرجل وسيد المقام يحرّر بعض القصائد الشبقية الرديئة جدّاً وهو مبهور بجمال الفتاة وبأصولها العثمانية (تحصّن العثمانيون في الجزائر من سنة 1515 إلى 1830 عند وصول الفرنسيين، لكنهم تصرّفوا بطريقة همجية، وعاثوا في البلاد فساداً، تلك البلاد، الجزائر، التي طلبت منهم المساعدة وقد كان الإسبان يهددون سواحلها. لكن الأتراك رفضوا مغادرة الجزائر بعد انتصارهم على الإسبان وتحولوا إلى غزاة ومستعمرين ذوي بطش عنيف وتسلط أعمى. هرب الناس من المدن الكبرى وتحصنوا في الجبال والصحاري والسهول الخصبة والهضاب الرعوية، خاصة أن هؤلاء الأتراك، بغالبيتهم، كانوا من القراصنة والانكشاريين، وقد أُتي بهم من مناطق البلقان وجنوب أوروبا، خاصة الإيطاليين، فاعتنقوا الإسلام حيلة، وبنوا المساجد قرباناً، وتوغلوا في البلاد نكالاً. وكانوا كلهم يدينون

بالمسيحية متعصبين لها. من بين هذه المساجد جامع بشين، وقد بناه أحد المرتزقة، وهو تحفة هندسية رائعة صغيرة الحجم، وموجود في حي باب عزون، أي في مدخل من مداخل القصبة العتيقة، وقد اختاره السيد ألبرت من بين كل المساجد للرسم).

بزواجه بقمر، أراد أبي، واعياً أم غير واعٍ، أن يندّد بأصول أمي المنحدرة من عائلة عمالية فقيرة، إذ إن أباها كان عاملاً بسيطاً في شركة الخطوط الحديدية، يشهر شيوعيته وإلحاده وإدمانه الخمر على وجه الملأ، قائلاً ومردداً: "أنا أحمر وأحب النبيذ الأحمر!" رغبة منه في استفزاز أبي ومشاكسته. أما أبي، فراح يمجد أسلاف وأجداد زوجته الثانية، قمر، ولم تبلغ بعد، ولم يبلغ عمرها 12، فجُنّت ليالي الرجل الذي أصبح بليداً ورخواً وأحمق! هو المعروف ببطشه وصرامته وذكائه ومواقفه السياسية وثقافاته العجيبة وتمكنه من لغات ينطق بها نطقاً جيداً. كذلك، أصبح حسان الجزائري يهترف ويهدر ويفقد وعيه من قوة العشق الذي يكنه لزوجته الصغيرة، وأهدى لها مبنىً فخماً جديداً. ومن شدة الانبهار، انحرف نحو شيء من الجنون اللطيفظن فبات يعمل في مكتبه بطريقة هستيرية، ويكتب القصائد بطريقة رديئة، ويقرأ **القرآن** بأسلوب ابتهالي، ويصلي الصلوات بطريقة غير شرعية، وينصب الكمائن لمضاربيه بخبث، ويضربنا، نحن الأطفال، بطريقة ساديّة مرضية، ويعصف بالناس وبالجوار وبالأحباب بأساليب بهلوانية... كذلك، كان يتردد (في تلك الفترة القمرية كما يسميها كمال ساخراً من أبي) على مدرسة ابن باديس بقسنطينة، ومدرسة القراوين بفاس، ومدرسة الزيتونة بتونس، ومدرسة الأزهر بالقاهرة... فتتلمذ على يدي الشيخ ابن باديس في الجزائر، والشيخ ابن منصور في المغرب، والشيخ الفاضل بن عاشور في تونس. وقد اشتهر الأخير بتفسيره الرائع لـ **القرآن**، وبتفسيره الرائع أيضاً لبشار بن برد، ذلك الشاعر المعربد الثائر والمجنون جنوناً رائعاً، فأثار الإمام الفاضل ابن عاشور ضجة كبيرة في أوساط الفقهاء على مستوى العالم الإسلامي وكذلك جدلاً كبيراً عند شيوخ الأزهر، وكان يردّ عليهم: "ألم ينجز الشّيخ النّفزاوي رائعة **الرّوض العاطر**؟"

بغداد التي زرتها بعد أن زارها أبي واشترى من سوقها منمنمة الواسطي التي أصبحت لي خيبة لكونها نسخة. بغداد أبو غريب. بغداد الهزيمة. بغداد الفاجعة. بغداد الاغتصاب

(اغتصاب جنود الجيش العراقي من جنود وجنديات أميركيات). ”لا أنسى، لم أنسَ. ولن أنسى“، يرددها كمال وقد سقط في عصاب يكاد يكون مزمناً. بغداد كذلك.

لم يكن مشرق ديلاكروا الذي بدأ يسكن مخيلتي بعد انصراف البارون دو شارلوس، لكنه مشرق **ألف ليلة وليلة**، تلك الرواية التي أذهلتني، حيث لم أتِهْ في أزقته الملتوية ومتاهاته الضيقة، وأتذكر كيف كان الخليفة هارون الرشيد يتجول خفية في هذه الأزقة والأحياء الرائعة باحثاً عن مغامرات عجيبة وغريبة (مارسيل بروست. **البحث عن الزمن المفقود**).

كذلك بغداد حمدان بن قرمط الذي حيّر الإمبراطورية الإسلامية، فنجح القرامطة بطريقة أنجع من الثوار الزنج، وعلى رأسهم علي بن محمد، لأن حمدان بن قرمط حضر بطريقة علمانية لإنجاز دولة (جمهورية؟) قوية فطال عمرها (425/275 هجرية) وذاع صيتها وفرح بها كل فقراء العالم. عرف حمدان كيف يستغل السرية وتزوير الأوراق النقدية والبطاقات التعريفية والجراحة الجمالية والشيفرة الرياضية والحمام الزاجل والحرية الجنسية وتوزيع الخيرات والأرباح على المواطنين وتحريم الملكية الخاصة والعبودية والثورة الزراعية و... لكن غرقت هذه الثورة في دمائها بعد فترة دامت 150 سنة. وانتهت القضية! كان كمال يرفض هذه السقطة: ”أنت هزيمي وصلف واخرس يا ولد!“ عندما حدثنا الأب عن أسفاره في بلاد الشام وعن حربي العراق، يقول: ”تُذكرني هذه الحرب، بأمواتها ومُعذّبيها، أنّني آنذاك عُذّبتُ عذاباً شديداً من الجيش الفرنسي! فكيف، ربّاه، لم أمُت ولم يغتالوني مثلما اغتالوا العربي بن مهيدي ومصطفى بن بولعيد وموريس أودين وفرنار ايفتون وهنري مايو وغيرهم؟“ لعل كل هذه السنوات التي أمضاها الأب في السجون وزنازين التعذيب زادت إمكاناته الجنسية (وإذا جن ليلي أنتم قمري يا قمري المقمر... قمر! قمر!) وطموحاته التجارية واستيهاماته السياسية. كان آنذاك في الأربعين، وبمناسبة عيد ميلاده، تزوج بقمر ووقع في حبّ جنوني: 25 يوليو 1945، عام واحد قبل وفاة السيد ألبرت التي تركت أثرها فيه وأحزنته حزناً كبيراً.

بعد انتهاء الوليمة سافرت أمّي إلى قريتها الجبلية حيث تقطن عائلتها، فاصطحبتها وركبنا القطار انطلاقاً من محطة قسنطينة. لم تكفّ أمّي عن البكاء. تبقى دموع أمي هكذا مجّمدة.

وبعد ساعات توقف القطار في الخروب، وهي مدينة صغيرة لكنها تمثل مفترق طرق أساسي لشركة الخطوط الحديديّة شرق البلاد... مجمدة، عيون أمي، إذن... مجمدة، ساكنة.

8

بعد زواجه بقمر، حاول العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام والعم مجيد تسلية أمي وتعزيتها، وطلبوا من السيدة مارسيل الانتقال إلى قسنطينة لمساعدتها والتضامن معها وشد عزيمتها، أوليست هي رئيسة اتحاد الدفاع عن النساء؟ لكنها لم تتمكن من القيام بهذه المهمّة بسبب مرض زوجها وإصابته بسرطان المرارة، وقد أخذت حالته بالتدهور يوماً بعد يوم، فيحزن العم إسماعيل لذلك، وزهرة على وجه الخصوص.

عودة إلى المنزل وحديقة المنزل وعصافير المنزل. كأن هذه العصافير تحمل في مقلها كل دموع العالم ودموع أمي خاصة، وعلى وجه التحديد تلك التي تصقّعت داخل عينيها يوم 25 يوليو 1945، أي يوم زواج أبي بقمر. وقد احتفظت بصورة تمثل قمر وهي جالسة على أريكة (عرش) الزواج ترتدي قفطاناً أحمر قانياً وجسدها مغطى بالمجوهرات. كذلك احتفظت بصورة أخرى، بعد مجزرة سطيف، 8 مايو 1945، تمثل طفلاً صغيراً خارجاً من خيمة يرتدي "قشابية" من وبر الجمال، فيطلق عليه جندي فرنسي رصاصة واحدة تصيبه في جبينه، فيسقط الطفل ميتاً. صمت. إضافة إلى الصورة الملتقطة يوم 8 يونيو 1972 في مكان ما من فيتنام (ترانغ بانغ؟): طفلة فيتنامية عارية تجري بجسدها الذي تأكله النيران وهي تحدق في العدسة ونظرتها... نظرتها؟ كيف كانت نظرتها؟ لا يمكن وصفها أبداً.

بعد انتهاء الوليمة سافرت أمي إلى قريتها. عيون أمي ذاهلة وساهمة وهي جالسة على حقيبة من حقائبها في محطة الخروب، في ساعة متأخرة، كان الجو بارداً والظلام أدهم، وأنا واقف بالقرب منها أنظر إلى الغلالة تستر وجهها ما عدا عينيها. أنا متسمّر أسترق النظر إليها، والسمع إلى لهاث القطار المقترب شيئاً فشيئاً. يدخل القطار المحطة مفرقعاً مجلجلاً يلتهم الفضاء من كل جوانبه، عاصفاً دخان فحمه في الأجواء، محوّفاً رصيف المحطة، خارقاً الصمت وعتمة المحيط بمصابيحه الأمامية التي تبثّ الرعب مثلها مثل أعين العصافير المصطفة على حافة السقف الشرقية، حين تكفّ شجرة التوت عن الحركة وتبقى مستعدة

لقبول أشعة الشمس التي ستصليها ناراً وهّاجة. ربّما تترك أمي آنذاك العنان لدموعها مستغلة الضجيج والصخب، خاصة أن عدد الركاب قليل والمنتظرين أقل.

يقف القطار تدريجياً وأنا متسمّر بجوارها. تهرع نحو الحقائب كي لا أرى الدموع المنسكبة بصمت على وجنتيها البارزتين. راح سائق القطار يحرك بكل قوة المنبه بصفارته الحادة وهي تقبض بيمناها على الحقيبة وبيدها اليسرى تمسك يدي الصغيرة، وأنا طفل لم أتجاوز الرابعة. تهرول نحو قاطرة الدرجة الأولى دون الإدلاء بأي كلمة، صامتة، ساكنة، كأنّها ماتت أو مات جسدها داخل خمارها الحريري الأبيض أو كأنّ الأرض ابتلعتها. غابت عن الوجود كأن شيئاً لم يعد يستحق الاهتمام، ما عدا الحقيبة وقبضة يدي التي تضغط عليها بعنف غير معتاد. لم تحِدْ نظراتي عن وجهها المقنع، أحاول، دون جدوى، فهم هول الواقعة من عينيها. أحدّق إليها والقطار ينطلق نحو القرية التي غادرتها منذ سنوات صحبة زوجها وابنها البكر، وما عادت تزورها إلا كلّ سنتين لتضع حَمْلها فيها. يحمل زوجها صندوق البيض وبعض المتاع المصرور في قماش قطيفي وقليلاً من الزاد لا يتعدّى كسرة خبز وقطعة من اللحم المقدد. وهي تخبّ الخطى خلفه بصمت تحاول اللحاق بوتيرة مشيته العنجهية. أكفّ عن مراقبتها حين تجتذبني الضوضاء والجلبة ولهث القطار وفرقعة عجلاته وقد خفّت حمولته وراح الحمّالون يجرجرونها نحو بهو المحطّة. مجدداً يخيم الصمت الرهيب على القمرة الخاصة بنا فيقبع كلّ منا في فراشه وتطفئ أمي الضوء لتغرق المقصورة في عالم اللاوجود.

كان أبي على عكس أمي مجبولاً بروح الصراع والنضال، وقد عزّز أصله الريفي فيه تعنتاً مخيفاً وتعصباً مريباً وجشعاً رهيباً. كان يهتم بكل شيء ولا تخفى عليه خافية. عندما رجع في أحد الأعوام إلى القرية وشاهد سيارة أكبر بنّاء من بنّائي المنطقة، هاتف أحداً في الولايات المتحدة فوراً وقدم طلبية لأفخم سيارة أميركية، وقد اختار لونها أخضر ناصعاً، فكاد البنّاء يموت غيظاً. كان يهتم بكل شيء، وكان العلم يفتن لبه فوق كل حد، وقد اهتدى إلى حذق التكلم بلغات عدة دون أن تطأ قدماه أرض مدرسة، لكنه عرف كيف يستغل وقته كلما دخل السجن لأسباب سياسية.

كان في نظرنا محاطاً بهالة العالم العلامة. كانت جيوبه مكتظة على الدوام بالكتب والمجلات يقرؤها حيثما أتيح له ذلك. وكان يتفق له أحياناً أن يعيد على أصحابه وأحبائه معلومات بعض الكتب التاريخية والفلسفية والفقهية (لكنه لا ينبس بأدنى ملاحظة عن القصائد الشعرية التي كان يدبجها لزوجته المراهقة، قمر، التي كان يعشقها، وإن كنت كثيراً ما شككت في عشقه، ظانّاً أنه لم يحبّها لجمالها، وهو غير قادر على تذوقه، وإنما لحسبها ونسبها وقصة سلفها). كانت قمر تبعث القلق في نفسي لهذا الطيف الزاحف الذي كنت أراه يبرز من القماش الحريري الخفيف الهفهاف عند حدّ ثنية فخذيها، وكانت إذا أفاقت من النوم بدت عيناها تائهتين. وقد بلغ غموضها حداً جعلني أسأل نفسي وأستنجد بروحي لمعرفة سرها: هل كانت تحب أبي حقاً؟ هل كانت تحب أخي الأكبر عبد الله؟ دكان أبي فسيح وفارغ. الزوال في قمة أوجه. رائحة القرفة فواحة وكتب ودفاتر المحاسبة كثيرة والفواتير متراكمة والحبر والكتان والخشب والزخارف والدواة العتيقة... كان قد اشتراها من بازار طهران.

طهران
12-3-1926
حسّان

وأنا واقف متسمّر بجوراها والقطار يتوقف تدريجياً، تهرع أمي نحو الحقائب حتى لا أرى الدموع المنسكبة بصمت على وجنتيها البارزتين، فيما راح سائق القاطرة يحرك بكل قوة المنبه بصفارته الحادة. أكف عن مراقبتها... المحطة: الخروب. المدينة: قسنطينة... ثم يستقر كلّ منّا في المقصورة المخصصة لنا وهي من النوع... وكان أبي، على عكس أمي، رجلاً عنيداً وشغوفاً بكل الأمور والأشياء والأشخاص. وكان بعد أن تعرّف إلى السيد ألبرت يريد شراء نسخة من لوحة "مسجد ساحة الحاكم العام" (جامع البحر أو جامع الجديد أو جامع المسمكة؟)، فحصل أخيراً عليها، وكانت من إنتاج أحد المقلدين البارعين والحرفيين القادرين وصديقه. ولما رأى السيد ألبرت هذه النسخة، أعجبته فوقعها بتوقيعه الحقيقي، وصار أبي

مبسوطاً ومرحاً ومعترفاً بجميل الرسام مدى الحياة. كان لأبي هالة كبيرة حين كنّا أطفالاً وكذلك عند زهرة لأنه كان يملك ثقافة كبيرة في المجالات كلها (التاريخ، السياسة، الأدب، العلوم) وكان يتقن أكثر من عشر لغات دون أن تدوس قدماه أي مدرسة فرنسية. كان عصامياً. يطلق العنان من حين إلى آخر فيلقننا دروساً في السياسة قائلاً: "نحن في عصر الردة وقد فشل العرب فشلاً ذريعاً ودخلنا عهد الانحطاط منذ قرون وسوف تدوم هذه الحالة قروناً أخرى... سترون! سترون!" كنت أخافه حين يكون في هذه الحالات العصبية خاصة أنّ السمنة أوشكت أن تفقدني رشدس في المراهقة. عندما ألتقي زوجته قمر، التي تستفزني أحياناً بعد استيقاظها من نعاسها، فتخرج من غرفتها وهي شبه عارية متقمطة جلباباً حريرياً شفافاً تبرز عانتها المزغبة من خلاله بين فخذيها العاريين، أبقى مصدوماً قلقاً لا أعرف كيف أتصرف. كنت آنذاك أرى وجهها مجعداً وشعرها أشعث وعينيها براقتين شبقتين وهي تمشي الهوينا أمامي كأنها تبتغي قنصي. أخاف، أشعر بقشعريرة رهيبة تفقدني وعيي واتزاني. وينتابني التساؤل المشكك عندئذ: هل تحب قمر زوجها أم لا؟ وهل عندها عشيق من ندّها تعشقه وتموت بين أحضانه؟

مكتب أبي فسيح. وصلت الشمس إلى سمتها. تعلن الساعة زوالاً حاراً ودبقاً. رائحة التوابل تغزو كل شيء. كتب المحاسبة تناطح السقف. الفواتير تتكدس عشوائياً. قارورات الحبر مصطفة كالجنود الرصاصية التي كنت أشتريها أثناء طفولتي. خشب المكتب من الطراز الثمين والمزخرف. محبرة عتيقة ورثها صاحب المحل عن أجداده (أم اشتراها من بازار حلب؟) تلك المدينة الرائعة بأسواقها المذهبة ومساجدها وقد تحولت إلى خراب حيث عاث فيها الإسلاميون وطائرات الجيش السوري كذلك، بعد اندلاع ما سمي الربيع العربي في 2011 من طرف الغزاة الغربيين، فتحولت حلب ودمشق، وسوريا بأكملها، ضحية للأمراء

الخليجيين والمخابرات الأميركية مثلها مثل بغداد. وباتت مقصداً لمن هبّ ودبّ من الإرهابيين في العالم. فحطموا ودمّروا واغتصبوا وذبحوا.

حلب
12/3/1926
حسّان

القلق الأخضر. أشعر كأن نباتاً نما في نخاعي الشوكي. أنكح قحبة، تعودت مجيئها من حين إلى آخر، في مكتب الأب. يتقاطر ماء ثقيل من فرجها، تمسك يدي وتولجها في فرجها. يخرج المني من أيري. يأخذني الدوار. يأخذني الغثيان. تضحك المومس من سمنتي ومن عنفي (ولد الفار يطلع حفّار). تردد هذا المثل الشعبي مرات. أتركها تهذي. أشعر أن أصابعي أصبحت مقطعة رغم الحر الشديد في الخارج. تموجات الهواء الذي يتجعد هنا وهناك. عشوائية الفرج وفوضى الأشياء، برضى هذه المرأة. يشبه الفرج الأنبوب المرصص (أبزيم بالأمازيغيّة) يفيض بمياهه العكرة. خيانة الحواس. أنظر وأنا في هذه الحالة المشفقة إلى المارة من خلف الزجاج المحبحب، فأجدهم أقزاماً صغاراً. إحباط حواسي. أين الثقبة؟ أين الفتحة؟ أين الشق؟ أين أنا؟ هي: زهرة. صور. كلها استيهامات على هيئة ومضات سريعة التراسل تعبر ذهني وذاكرتي. تغزوني موجات شبقية مرتبطة بوجه زهرة وجسدها الرائع فيغمرني كلامها حول الثقوب. وهي لا تفتأ تغسله وتعطره وتصقله. لماذا تزوجت بألفريدو؟ أتقيأ. أبكي وأسكب الدموع الحارة التي تتساقط على جسدي العاري والبدين بدانة لا تطاق (Botty Foffy... ويا سمينة وكال الطمينة). قلق أصفر (أم زعفراني؟). غمّ أخضر (أم مستخضر؟). كانت زهرة لا تمل من قراءة **رسالة الغفران** للمعري وكذلك كتب ميمونيد وهايدغر، فلاسفة اليأس الكوني، وكذلك أبو نواس شاعر الخمرة وقد عاش حياته

كلها باحثاً عن ”خمارة البلد“ وعن ”دار خمار“. يقول كمال: ”عاش الرجل حرماناً كبيراً لأن الخمر كان محرماً ونادراً وصعب المنال وجاء الخبيثون والأنذال واخترعوا خرافة علاقته بهارون الرشيد. كذب هذا! كذب! أبو نواس عاش مغبوناً لأنه كان شاذاً ومتمرداً وسكيراً يشفقني مصيره، فنحن كذلك، نبحث عن خمارة البلد... أحبه!“

أما اليوم، فأصبح المنزل فارغاً وقد غادره كلّ أفراد العائلة. منهم من مات ومنهم من هاجر إلى العاصمة ومنهم من غادر البلاد. أصبح هذا المنزل مأوى للأب الضال بعدما تجاوز التسعين وتوفّيت زوجاته جميعاً، والعمة التي دهسها ”الترامواي“ منذ خمسين عاماً أو أكثر وسط قسنطينة التي نزورها أنا وكمال، من حين إلى آخر، للتمتع بهندستها الجميلة والعتيقة، حتى صارت لنا نموذجاً فريداً من نوعه. كذلك، كنا نقضي، أنا وصديقي، منذ أول غزو العراق سنة 2003، أوقات فراغنا في مشاهدة الصور والأفلام حول هذه الكارثة. حرب منظمة ومنسقة ومؤرخة منذ سنوات. نشاهد الجنرال الأميركي باول وقارورته صغيرة الحجم التي تسببت في حرب العراق الثانية، نقهقه بطريقة هستيرية خاصة ولواؤنا من أصل زنجي (أي أفريقي!). نضحك ثم نبكي ثم نثور: ”هذا عار علينا! هذا عارنا وليس عارهم“. نشاهد المجازر والهدم والكسر والتقتيل (أبو غريب! أبو غريب!) واغتصاب الجنود العراقيين من الجنود الأميركيين وتعذيب النساء والأطفال... (غوانتنامو؟ ما هي غوانتنامو؟ منطقة كوبية، يرد علي كمال. أليس كذلك؟ مجرد منطقة كوبية. أليس كذلك يا ولد!). نشاهد كذلك الرئيس أوباما وهو يعترف بشجاعة أميركا ودموعه تتغرغر كدموع التماسيح. فنضحك من جديد ونقهقه من جديد ونبكي دموعاً فيها شيء من الدم.

هذيان.

... أما اللوحة الثانية (4م/3م)، فتمثل مسجد ساحة الحاكم العام (أصبحت اليوم ساحة الشهداء رغم أن الناس أصروا دون وعي على تسميتها ”بلاصة العود“، والميناء ورافعات الميناء والتمثال الذي يركبه (يركبه من؟ بيجو؟ Duc d’Orléans؟ أم... لا أهمية لهذا! لا، لا).

لقد هدأت سيلين وذهب روعها وبدأت تستمع للكلمات والألفاظ والجمل وأنصاف الجمل والحروف تخرج من فمي دون انتظام وبلا معنى. بهتت سيلين هذه الهستيرية. صارت مدهوشة. توقفت عن التدخين. ساورني شبح العمّة فاطمة، ثم كففت عن إخافتها. سكتت لحظة. اقتربت من النافذة واستنشقت بعض الهواء البارد. قلت بهدوء: ''أتذكرين الرسالة التي بعثها العم إسماعيل بعد وفاة هانرييت الزوجة الأخيرة واليهودية، رقم 4، وهو يسألني حول المقبرة التي ستدفن فيها هذه المرأة: المقبرة الإسلامية أو اليهودية، مع العلم – يقول العم إسماعيل – أن أبناءها يفضلون الإسلامية رغم أن القانون يمنع ذلك، لأنها لم تعتنق الإسلام. فقلت له: ما الفرق يا عمي بين مقبرة يهودية وإسلامية؟ كل القبور تتشابه وهي طين ورمل وعشب...؟'' سيلين صامدة صموداً بطولياً. لم تضحك. لم تبكِ. وفي رسالة أخرى، كتب العم إسماعيل يقول: ''سأموت وأنا مملوء بالغيظ والغضب لأننا فشلنا في قضية إرث السيد ألبرت، المسلوب مِن... ما العمل؟'' ثم يغير موضوعها ويكتب: ''هل تتذكر العمة فاطمة وأوشامها وسنخها المزنطر؟'' كان العم إسماعيل يعشق اللغة الجميلة ويحفظ **القرآن** بأكمله ويعرف الكثير من الأشعار العربية القديمة والحديثة. بقي الرجل مهووساً كل حياته بهذه المشكلة، مكان دفن هانرييت الزوجة الرابعة لأبي، وكان يحبها حباً جماً ويحنّ عليها حناناً كبيراً. فيكتب مرة أخرى: ''حرام أن ندفن هذه المرأة الطيبة في جبانة اليهود، كما أنها كانت تحترم الشعائر اليهودية وتتردد كثيراً على كنيس اليهود. كانت نزيهة وعفوية. حاول أن تحل هذه المعضلة حتى ندفنها في مقبرة المسلمين. هذا ما يريده أطفالها وهم من المسلمين النزيهين والمحترمين''. مثلما كنت مرهقاً وتعباً، كذلك كان كمال. أما سيلين، فقررت الاستقرار في منزل العائلة الموجود في قسنطينة، ولم أرَ مانعاً، رغم خوفي أن تسقط بدورها في المستنقع العائلي وهبله...

اسكت. اهمد. مشاعر كثيرة ومتناقضة تخرق جمجمتي كأنني أعيش في صحراء باردة جليدية... لكن حلب؟ لكن بغداد؟

بغداد

12/12/1932

حسّان

... فوحان الخميرة الزنخة والساخنة. تعاريج متقاطرة. ماء ساخن. تعتعة. تلجلج الكلمات الصامتة. كلّ ذلك يتساقط في رأسي كثلوج رخوة تتساقط من سماء قسنطينة في فصل الشتاء القارس. تموّجات. غليان نمليّ الوتيرة. آثار مبهمة. شقوق. قباب. بنيان هندسي متفاوت الحجم والتركيب. نسق. ثم غسق. أفق بين الوردي والرمادي. بقايا جمل كأنها مطلية باللون الزعفراني. رواسب. أحلام وكوابيس متفتتة تخز الجمجمة. عقد مطلية بالخزامى. قيء غثياني. تمرثات خمرية وكحولية. دويرات متراكزة. تشابكات متطابقة. أشكال مخروطية. تشوشات غريبة وحرشاء كأنها تقتحم رأسي مثلما تفعل الجرذان عندما تقضم وتعض قطع الجبن. يمنعني الأرق من النوم، ثم يعود الليل. ظننت أن المطر الذي امتنع طوال النهار قد حرر مياهه وسكبها بعنف وغزارة. وهذا عادي في مناطق الهضاب العليا حيث تتموقع قسنطينة، وذلك بعد جفاف طال أسابيع.

أما سيلين، فتنهار أحياناً أمام لغوي المضطرب وهذياني الطوفاني، فتأتي الكلمات كأنها مائعة، جارفة، وامضة وسلسة في آن. كنت أقص لسيلين، للمرة الألف، الماضي والحاضر وقد مزقني الزمن البئيس والاستياء الذي لا يبرحني ولم يتركني (أيضاً بالنسبة إلى صديق العمر ورفيق الدرب كمال). كما كنت أقرأ لها المستقبل السيئ والضبابي الذي ينتظرنا (وهي كذلك!). كل هذه الكوارث والحروب. كل هذا التعصب الديني. هذا الإرهاب من الأشخاص والعصابات والدول كذلك! هذا الغرب اللئيم الغاشم الذي يمقتنا ويحتقرنا ويحاول مسخ شخصيتنا وهويتنا وأوطاننا لا لشيء إلا الاستحواذ على أشيائنا وأمورنا وخيراتنا. ومن حين إلى آخر وأنا ألقن الدروس السياسية لسيلين وهي في غنى عنها لأنها كانت عارفة بالوضع السياسي الوطني والعالمي وحيلة الأمم الغنية والضاربة والمتعالية التي تقهرنا وتحاربنا، أطلق العنان لهوسي المركزي: البدانة التي عذبتني وأرهقت مراهقتي. علاقتي الغامضة والملتبسة بزهرة التي تكبرني. العم إسماعيل الذي توفّي وتركني يتيماً (كذلك كمال) والسيدة

مارسيل على وجه الخصوص. تتحجر سيلين وقد عكفت تحدق فيّ وتوقفت عن التدخين، هي المدمنة التي اصفرّت أصابعها من الإدمان. أسمح لها بالتدخل في خطابي المسعور لكونها تملك قدرة كبيرة على ترويض وكسر كلامي بطريقة لطيفة جدّاً فيها ليونة الحب التي كانت تكنه لي منذ صغرها.

كنت أتحايل حتى لا أتركها تندسّ بين حروفي وكلماتي وجملي وحديثي عن الماضي البعيد. لكن في الحقيقة كنت أحترز من الأمر ومن انحطاط نفسي عندما يتعلق الأمر بسيلين لأنها كانت ثاقبة الوعي، عارفة بأموري وتوهمي، وتعرف جيداً متى أكذب ومتى أقول الحقيقة. فأتخلص عندئذ من كل أوهامي ومخاوفي وفزعي أمام هول الحياة، إذ إنني بقيت طوال حياتي باهتاً وحائراً أمام سلْب إرث السيد ألبرت، فأصبحت هذه المسألة هاجساً مركزياً تغطى حياتي ولم أفهم، إلى يومنا، لماذا أخذت هذه السرقة حيّزاً من حياتي وقد عرفت الخيانات والمآسي الكثيرة والخيبات المتعددة...

... حين أردت، في يوم من الأيام، التقاط صورة لسيلين، أنا المصور الرديء، انزعجت زوجتي من هذه الرغبة وأصابها الهلع فهربت وتركت المنزل. تفهمت جيداً رد فعلها لأنني أيضاً كنت أخاف من العدسات وأرفض أن يصورني أحد. وقد لاحظت أنّ فنّ التصورير الفوتوغرافي مزعج ويترك الشخص غير قادر على النظر في اتجاه العدسة. كأن المصوَّر يشعر بحياته تنتزع منه، أو تستلب أسراره الحميمة وكوامنه العميقة، فيصاب بالشجن والكآبة، خاصة أنّ المصوِّر يبحث عن خلفيات ويلهث وراء الجسد يريد استخراج ما فيه من آدمية وجشع، ويعبّر في الآن نفسه عن وحشيته وهشاشته. المصوّر يريد صورة يستحيل التقاطها. ملتقط الصورة يعكر بنظرته الملهوفة والخبيثة نظرة الذي يريد سلبه من نفسه وروحه وخباياه وخلفياته وعقده. صورٌ بقيت في ذاكرتي منذ زمن طويل. صور! تُدخِلُ فيّ الشك والوسواس والهلاوس منذ طفولتي والسمنة وغياب أخي الأكبر. وقد احتفظت بها منذ زمن طويل:

1- صورة طفل جزائري يخرج من خيمته ضاحكاً فرحاً، ثم يسقط فجأة وقد باغتته رصاصة جندي فرنسي وفجرت جبهته (20/05/1945).

2– صورة صبية صغيرة فيتنامية تجري عارية والنيران من الغاز البرتقالي تلتهم ظهرها (20/06/1972).

عندئذ أفهم خوف سيلين أمام أي عدسة، لأن الصورة لا تمثل إلا جشعاً إنسانياً (كذلك البطاقات البريدية التي كانت تباع في الجزائر أثناء الاستعمار والتي تمثل المومسات الصغيرات والأطفال الفقراء والجائعين أو المشنوقين ويكتب السياح خلف البطاقات الرهيبة: "Bons Baisers d'Algérie").

صور بغداد. صور حلب. صور بنغازي ثم دمشق (مسجد الأمويين والكنيسة المسيحية القديمة التي تكاد تلتصق به) وأسواق بغداد. شارع أبي نواس يشق بغداد من الشمال إلى الجنوب. أسواق حلب التي... كنت أتردد على هذه المدن العربية لأقدم محاضرات حول المعمار العربي الإسلامي الأصيل الموجود في الجزائر بصفتي مهندساً معمارياً. حلب، مرة أخرى، حيث تعرفت إلى شاعر شاب ومتميز وهو يمتهن الجراحة في أحد مستشفياتها. هكذا تذهلني كل هذه الصور وهذه المدن المحطمة عن آخرها. اليوم وقد اختلطت ذكرياتي بذكريات أبي وقد زار كذلك هذه المدن العتيقة والرائعة، وأرسل منها البطاقات...

بعد وفاة أبي والعم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام، فهمت أن فيلا جنان سيدي السعيد لن تسترجع أبداً. لقد فشلت كل المحاولات والشكاوى والتدخلات على أعلى مستويات الدولة. أما الموظّف الصغير، فبقي في منصبه سنوات ولم يصبه صائب، حتى تقاعد وانصرف نحو أموره الخبيثة وأخرى غامضة ومخفية. ولم يزعزعه أحد منذ 1971، وهي السنة التي سخت فيها السيدة مارسيل بإرث زوجها، ورشته ومنزله ولوحاته، خاصة أن وزراء الثقافة كانوا يمرون مرور الكرام على هذه المؤسسة، فلا تدوم صلاحية كل وزير إلا سنة واحدة تقريباً.

خلفت فيلا جنان سيدي السعيد عمارة ضخمة قبيحة الهندسة ومشوهة الآفاق، وهي الآن إسمنت صلب ومطلية بألوان بشعة، والصبغة المملوءة بالأزهار والأشجار التي كان يمجدها السيد ألبرت في مراسلاته مع صديقه هنري ماتيس أصبحت قاحلة وأرضاً بوراً. بعد وفاة العم إسماعيل، تركت هذه المهنة لاسترجاع المكان وبناء ورشة الرسام ومنزله من جديد، بل إنعاش الروضة الأصلية رغم أن فضيحة السلْب الذي تعرض له إرث السيد ألبرت لا تزال

تلازمني وتسكنني وتعذبني خاصة بعد وفاة السيدة مارسيل التي كانت امرأة تحن على الفقراء وتحارب الظلم أينما كان، وتتطوع في الحركة الوطنية وتتوغل في حرب التحرير، فاشتغلت مناضلة شجاعة وإنسانة أنيقة وامرأة عظيمة. في تلك الفترة، لم تفتأ هذه السيدة تحاول إقناع زوجها الانخراط في الحزب الشيوعي الجزائري وهي من مسؤوليه الأوائل. لكن السيد ألبرت كان فوضوي الطبع حشوم المزاج وانطوائياً رهيباً، لكنه كان مبهوراً ببيكاسو والتزامه السياسي ونشاطه الشيوعي، فكتب إلى هنري ماتيس في رسالة مؤرخة ب-12/12/1943: ”موقف بيكاسو موقف مشرف وصائب، هو الذي انخرط في الحزب الشيوعي منذ مدة طويلة وهو الذي رسم ’غرنيكا‘ و’نساء الجزائر‘ و’يمامة السلام‘. لقد استفاق بيكاوس منذ البداية، أما نحن، فأخفقنا وقتلنا الجبن! لذا كان رساماً أمهر وأكبر منا بكثير. أعلم أنه سرقك كثيراً وهو لم يخفِ أو ينكر ذلك أبداً. ألم يصرّح في يوم من الأيام: لقد قلدت الآخرين كثيراً وكثيراً وبهذه الطريقة استخلقت أسلوبي الخاص! أما نحن، فكنا مهووسين بالألوان والأشكال حتى الوسواس. كنا قد فقدنا البصيرة ولم يفعل هو شيئاً من أفعالنا... لا تنسَ ’غرنيكا‘ وقد رسمها (سنة 1937!) و’نساء الجزائر‘ (سنة 1955 وشهر فبراير) أي ستة أشهر بعد اندلاع الثورة الجزائرية. يا للعار! يا للوصمة! يا للخجل يا هنري! ونحن؟ ماذا فعلنا؟ لا شيء! لا شيء!“

كان هذا السلْب يكوينا، أنا وكمال، ولم ينغلق الجرح إلى يومنا، وقد عشش الفساد في قعر بلادنا التي أصبحت مهزلة حتى أمام البلدان الأخرى التي تعاني من الفساد والرشوة والظلم. من حين إلى آخر، كنا، أنا وكمال، نتوقف أمام فيلا جنان سيدي السعيد نحدّق ساعات طويلة في هذه الكارثة المجسّدة للفشل الذريع الذي أحبط البلاد برمّتها. وفي يوم من الأيام، شاهدنا زوجة ”السالب“ تخرج من منزلها بمساعدة زوجها، وفهمنا أنها مصابة بمرض الفالج، وأنها تعاني الأمرين، فدهمتنا الشفقة وضربتنا الرأفة في الصميم، وعدنا إلى ديارنا هاربين حاملين عقد الذنب الرهيبة. قال كمال: ”لو كانت السيدة مارسيل على قيد الحياة، لتصرفت كما تصرفنا. هي الإنسانة الطيبة! لتنسَ هذا الهوس المرضي وهو قد نخر أجسادنا وأذهاننا... كفاية يا ولد! كفاية! لنترك هذا الماضي الكئيب والمريض... يا الله يا صديقي!“

تذكرت آنذاك، وكمال يثرثر ويعاتبني، العلاقة التي كانت تربط السيدة مارسيل بزهرة خاصة أنها كانت تعلم أن زوجها قد وقع في شباك حب زهرة، أختي التي أتى بها أبي (من أين؟) والتي جذبت أنظار السيد ألبرت بجمالها الرائع ورشاقة قدها و"هبالها" وتصرفاتها الغريبة. لقد خلف أبي 36 طفلاً من سلالته و26 طفلاً بالتبني، أتى بهم من أصقاع العالم ولم نعرف أبداً سبب هذا التصرف لرجل كان مزواجاً وعاشقاً وخصباً! هل لأنه كان يعاني عقدة ذنب ضخمة لاتهامه أمي بالزنى وقطع كل صلة مع ابنه البكر لأنه كان...؟ قررنا، أنا وكمال، نسيان هذه السرقة والتخلص من كراهيتنا وبغضنا وضغنيتنا تجاه هذا الشخص الذي لم يكن إلا عضواً ينتمي إلى نحلة مهووسة بالمال لا أكثر ولا أقل. لكن الأمر كان أصعب من ذلك، إذ إنني بعد استسلامي شعرت بنوع من الكرب وفكرت ملياً في الانتحار. لكن كمال كان لي بالمرصاد فأصبح يحرسني ولا يتركني ليلاً ونهاراً، فغضبت سيلين من هذه التصرفات. في تلك الفترة العصيبة، عاودتني لوعة السمنة وعذاب سنوات المراهقة، ففهمت عندها كل الوشوشات والمسكوت عنه الذي كان يسيطر على مكتب المحاسبة.

شاركت في هذه الدسيسة كل كهول تلك المرحلة، أي العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام وزهرة وحتى السيدة مارسيل كذلك!

لكن كنت أطمئن نفسي وأسليها سعيداً بوجود عشرات اللوحات للسيد ألبرت في متحف الفنون الجميلة، وقد أنقذت من النهب والسرقة والسّلب. كان هذا المتحف مبنياً في حي يشرف على البحر وقريباً من المكتبة الوطنية الجديدة التي صممنا هندستها، أنا وكمال، في الثمانينيات من القرن الماضي، فجاءت في قالب حداثي فيه بعض الاستقرار، نكالاً في رداءة الهندسة المعمارية العامة التي شوهت وجه الوطن بأكمله.

رفضت أن أزور هذا المتحف قبل أن أبلغ الخامسة والعشرين، وأخيراً أجبرني كمال على دخوله والتجول في أروقته والولوج إلى قاعة كبيرة واسعة الآفاق، فكانت الصدمة؟ اكتشفت لأوّل مرة عدداً كبيراً من لوحات السيد ألبرت ومن بينها "مسجد ساحة الحاكم العام" التي عايشت مراهقتي وشبابي في مكتب العم إسماعيل، علماً أن هذه اللوحة لم تكن إلا نسخة طبق الأصل، لأنها كانت ممضية من الرسام، واتضح لي أثناء الزيارة أن المسجد أضخم مما كنت

أتذكره، وأن الجواد الذي يمتطيه الجنرال بيجو (أو الجنرال أورليان أو الجنرال دو بورمون) كان صغيراً جدّاً ومضحكاً. فهل فعل الرسام الكبير ذلك عمداً ليطمس وينتقد الاستعمار الفرنسي وضباطه من الغزاة؟ لست أدري.

وأنا واقف قبالة هذه اللوحة التي روّعت مراهقتي ولونتها وزينتها، شعرت باللوعة، وأخذتني فجأة نوبة من الدموع الغزيرة المتدفقة الصامتة. لكن لم تدم هذه الأزمة إلا قليلاً، وبسرعة البرق، شعرت براحة لم أشعر بها من قبل. تبدّد كل الشجن الذي كان يسكنني ويعشش في قعر ذهني، كأن رواسب العذاب واللوعة والألم تتلاشى من داخلي. كذلك قصة حياتي العجيبة والغريبة وشخوصها المتمثلة بشخصية أبي متقلب الأطوار، وشخصية أمي الرائعة والنادرة جدّاً، وشخصية أخي الغائب، وشخوص العم إسماعيل والعم يعقوب والعم أبراهام وزهرة وكلهم.

وكذلك الموظف الخبيث الذي سَلَبَ...

9

كانت اللوحات المعلّقة على جدران هذا البهو في المتحف الكبير (متحف الفنون الجميلة) كلّها ممضية كالتالي:

Albert Marquet

حول الكتاب

نبذة

لوحتان يصدف للراوي أن يقف أمامهما وهو في سن العاشرة. تثيران فيه أسئلة يقضي حياته محاولاً العثور على أجوبة عنها. الطفل السمين الذي يعاني سخرية من حوله من سمنته كان شاهداً على العنف الدمويّ الذي خلّفته حرب استقلال بلده الجزائر.

بين العنف الذي تصوّره لوحة «معركة الزقاق» للواسطيّ، والمسالمة التي تبثها لوحة «مسجد ساحة الحاكم العام» لألبرت ماركيه، سيجد نفسه باحثاً في تاريخ بلده الذي كان واقعاً تحت الاستعمار الفرنسي وساعياً إلى التحرّر، ويراه اليوم تائهاً في طريقه نحو المستقبل.

قيل في الكتاب

«قامة أدبية بارزة» Le Monde

«من أبرز كتاب الأدب الجزائري» Jeune Afrique

عن المؤلف

رشيد بوجدرة روائي وكاتب جزائري.